

# هيلين كيلر

قصة  
حياتي  
العجيبة !

ترجمة واعداد  
محمد وهدان



ترجمة واعداد  
محمد وهدان

## المقدمة

هيلين كيلر واحدة من أبرز الشخصيات التي ولدت في القرن التاسع عشر ، فالتاريخ سيظل يذكرها باعتبارها الفناة التي تمكنت من قهر الإعاقة المزدوجة التي أصيبت بها بفقد بصرها وسمعها ، ومن المشاركة الفعالة في الحياة العامة والأنشطة الاجتماعية .

ولدت هيلين كيلر لأسرة من الطبقة المتوسطة تقطن بلدة «توسكومبيا» بولاية «آلاما» في الجنوب الأمريكي ، وعاشت في بيت توافر فيه وسائل الراحة ، وكان والدها يعمل محرراً صحفياً .

وابتداء من الوقت الذي أصيبت فيه هيلين بالمرض الذي أفقدها السمع والبصر وهي في عمر ١٩ شهراً فقط ، وإلى أن بلغت العام السابع من عمرها ، ظلت محل رعاية أسرتها المحبة لها ، والتي منحها قدراً كبيراً من الحرية في نطاق المنزل ، وبدون أى ضوابط .

لذا كانت هيلين تنصرف بطريقة شاذة وفي منتهى السوء كلما حاول أحد أن يحول بينها وبين أن تفعل ما ترغب فيه بالضبط أو تأخذ ما تريده بالتصديد ، كما كانت تدمر الدمى واللعب وتمزق الملابس وتخرب الكثير مما حولها كلما أصابها إحدى نوبات الغضب متكررة الوقوع كثيراً . وعرفت هيلين حوالى خمسين إشارة استخدمتها في التواصل المحدود مع الآخرين ، واستطاعت والدتها أن تجعلها تفهم عدداً من الأشياء ، ومع ذلك كانت صعوبة التعامل معها والسيطرة على تصرفاتها تتزايد أكثر فأكثر كلما كبرت

ولذلك كله فليس من المستغرب أن تشير هيلين إلى اليوم الذي وصلت فيه الأنسة «آن سوليفان» لتتولى مسئولية تعليمها باعتباره «أهم يوم في حياتها» .. فهو يوم خلاصها من السجن الرهيب !

لم تكن الأنسة «آن سوليفان» سوى فتاة صغيرة في الثامنة عشر من عمرها حين اضطلعت بمهمة هدم سجن هيلين وإطلاق سراحها منه ، أو بالأفاد أخرى «حين اضطلعت بمهمة تعليمها» .

والآنسة سوليفان بدورها نشأت في ظل ظروف صعبة ولكن من نوع آخر ، فهي لم تعرف في طفولتها العز ووسائل الرفاهية التي نعمت بها أسرة كيلر ، بل أمضت تلك الطفولة في منزل فقير كانت فيه تعامل معاملة قاسية وكادت تموت من سوء الحالة الصحية وفرط الإهمال ، وقد فقدت بصرها تقريبا لولا أن عينيها لحست بعد ذلك بالقدر الذي مكنتها من القراءة . ونظراً لكون آن سوليفان نصف عمياء فقد أرسلت وهي في الرابعة عشر من عمرها إلى «مؤسسة بركنر للمكفوفين» في بوسطن حيث تعلمت استخدام أبجدية الأيدي وقراءة النصوص المكتوبة بطريقة برايل .

وكانت المشكلة الأساسية الأولى أمام الأنسة سوليفان أن تهدب سلوك هيلين وتحكم سيطرتها على تلك الطفلة صعبة المراس ، وافتضى منها هذا أن تخوض صراعاً عبقراً مع والديها اللذين لم يكن بوسعهما تحمل خضوع طفليهما المسكينة لتقيود الانضباط السلوكي وضغوطه النفسية ، لكن الوالدين أيضاً كانوا متعاطفين لرؤية ابنتهما تتعلم وتكتسب قدرات من الثقافة والتحضر ، مما

جعلهما يتجهان حقيقة استحالة أن تتمكن الأنسة سوليفان من البدء في تدريب هيلين قبل الهيمنة على سلوكها وتعويدها الطاعة والالتزام . ومن ثم اضطروا والدان للإذعان ومنح المعلمة الشابلة فرصة العمل دون أي تدخل منهما . وما إن تم الاتفاق على ذلك حتى شرعت آن سوليفان في مهمتها وبدأت تشتبك مع الطفلة الصغيرة المتوحشة في معارك حقيقية ومشاهد دامية ، لكن قدراتها الخلاقية وجهودها الدائبة وصبرها وطول أناتها وذكاءها وحسن تصرفها أعطت جميعاً ثمارها بعد فترة غير طويلة ، وشكنت بالفعل من السيطرة على النفس حبيبة الظلام والصمت ، وما أن أحكمت السيطرة على سلوكها وأجبرتها على احترامها وطاعتها حتى تحولت إلى سوسيا باخب واللين والرفق بدلاً من الخوف والشدة .. وهكذا تهيأت الفرصة للشروع في تعليمها وإطلاق عارذ ذكائها الخبيس ! لقد حاولت آن سوليفان ببساطة شديدة تعليم اللغة لهيلين كيلر بنفس الطريقة التي يتعلم بها كل طفل من اغيطون به ولكن عن طريق أبجدية الأيدي لكونها تفقد المقدرة إلى السمع . وسيجد القارئ في متن هذا الكتاب وصفاً شائفاً للكيفية التي انتهت بها هيلين إلى «فكرة اللغة» ذاتها ، حينما تحققت بعد حيرة طويلة من العلاقة بين الأحاسيس الملمسية في يديها ، الناجمة عن استخدام أبجدية الأيدي ، وبين الأشياء الحقيقية الموجودة في العالم ، وتبينت أن الإشارات ( \* ) w-a-i-c-r حين يجرى هجاؤها

(\*) هي بالطبع «حروف» ، لكنها أيضاً «إشارات» من حيث أنها يجرى هجاؤها باللمس بالأصابع على يد الشخص الكفيف الأصم .



أصم يتلقى تعليماً كاملاً (حتى المرحلة الجامعية) فقد اعتبرت أكثر من مجرد «فرد من البشر» .. إذ اعتبرت «حدثاً تعليمياً» .

وكان العالم كله فى تلك الفترة يقرأ أخبار تعليمها بكل شغف ويتابع التقارير الخاصة بذلك باهتمام شديد ، كما تلقت هيلين العون من أجل مواصلة تعليمها فى صورة هدايا من الكتب وفى صورة هبات مالية من أهل الخير فى كل أنحاء العالم . وشمل الإهتمام بتلك الفتاة الفذة ومعلمتها البارعة ليس المعلمون فقط بل الكتاب والمثقفون وغيرهم من المهتمين بحياة العقل والروح ..

وهذا الكتاب الذى بين يديك كتبه هيلين كيلر وهى بعد طالبة فى الجامعة عام ١٩٠٢ ، لثروى لك شغاث من حياتها وقصتها مع تجربة التعليم خصوصاً فى مراحلها الأولى . وقد تخرجت هيلين فى كلية راد كليف Radeleffe College بمرتبة الشرف عام ١٩٠٤ ، واختارت منذ ذلك الوقت مسار حياة كانت قد بدأت بالفعل فى الحادية عشرة من عمرها حين قامت بتنظيم حفل شائ من أجل الخير تولت فيه جمع بعض التبرعات المالية من أجل تعليم طفلة أخرى أصغر منها ومحرومة مثلها من نعمتى السمع والبصر .

وفى عام ١٩٦٨ صعدت روح هيلين إلى بارئها ونعتها الصحف فى كل أنحاء العالم ، وكان من بينها صحيفة الأهرام القاهرية التى دأبت على نشر الكثير من أخبار هيلين عبر مراحل حياتها المختلفة .

على إحدى يديها فهى إنما تمثل ذلك السائل البارد الذى يتدفق من الطلمبة على يدها الأخرى . ومنذ تلك اللحظة العبقريّة مضت هيلين كيلر - وبكل شغف وشوق السجين الذى يتوق إلى الحرية - تسأل عن اسم كل شئ تلمسه أصابعها ، رمضى عقلها يقتصر المعلومات بسرعة كبيرة لم يكن بمقدور معلمتها أن تجارها . ولم تحاول الأنسة سوليفان قط فى أى وقت من الأوقات أن تتحدث إلى هيلين بطريقة مبسطة أو غير طبيعية .. بل كانت دائماً تتحدث إليها بجمل كاملة وصحيحة ، وتلزم كل أعضاء الأسرة بفعل الشئ نفسه حتى برغم علمها بأن هيلين لن يكون باستطاعتها تفهم كل الكلمات التى يجرى حوارها على يدها . ومن الطبيعى أن هيلين - شأنها شأن أى طفل آخر - كانت تفهم فقط ما يثير اهتمامها فى النور واللحظة ، أما الباقي فكان يختزن فى مستوى اللا وعى من عقلها ليعاود الظهور فيما بعد حين يتوافر لديها الاستعداد لاستخدامه .

وبعد تسعة شهور فقط من تعلم هيلين للكلمة الأولى أصبح بمقدورها كتابة جمل كاملة فى خطاباتها وأحققة أنه نادراً ما ظفر معلم مخلص لعمله ومنقطع إليه بمثل هذا النجاح الكبير الذى ظفرت به الأنسة آن سوليفان فى تعليم هيلين كيلر .

وبمجرد أن وجدت هيلين كيلر أمامها نافذة مفتوحة على العالم ، تخلصت تماماً من دوافع الثورة والهياج ولم تعد قط إلى نوبات غضبها الجامح وبدت فى حالتها الطبيعية ودودة محبة للآخرين ومتجاوبة معهم . ونظراً لكون هيلين أرل شخص كفيف

## الفصل الأول

### اسمى

«هيلين كينر» ، وقد ولدت في توسكومبيا بولاية ألاباما<sup>(١)</sup> بالولايات المتحدة الأمريكية يوم الأحد ٢٧ يونية ١٨٨٠ . ولم تكن حياتي في مطلعها تتسم بشئ غير عادى ، إذ كنت الطفلة الأولى لأبوى ، ومن ثم لقيت منهما رعاية كبيرة وحيماً جارفاً ، واختارت لى أمى عقب مولدى اسم «هيلين Helen» وهو اسم جدتى (والدتها) . منذ شهر عمري الأولى بدا على من أمارات الذكاء ما أثار إعجاب أفراد الأسرة وأصدقائهم ، فحين كان عمري ستة شهور استطعت أن أنطق بكلمة «مرحباً» ، وذات يوم جذبت انتباه كل من حولى عندما رحت أردد كلمة «شأى ، شأى ، شأى» بوضوح تام . وحتى بعد المرض الذى أفقدنى بصرى وسمعى ظلمت أنذكر إحدى الكلمات المهمة التى تعلمتها فى الشهور الأولى من حياتي وهى كلمة «ماء» ، وقد دأبت على إطلاق صوت معين شبيه بتلك الكلمة حتى بعد أن فقدت المقدرة على النطق بأية كلمة أخرى . وعلمت من أهلى أننى تمكنت من السير فى اليوم نفسه

(١) تقع ولاية ألاباما Alabama على خليج المكسيك ، فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى القسم الشرقى منها .

الذى أتمنت فيه العام الأول من عمري ، ففى ذلك اليوم رفعتنى أمى من حوض الاستحمام واحتوتنى بين ذراعيها ، لكن حدث فى ذلك الوقت أن جذبت انتباهى ظلال أوراق الشجر المتحركة التى راحت تتمايل فى ضوء الشمس على أرضية المنزل ، فما كان منى إلا أن انزلقت من بين ذراعى أمى وجريت نحو هذه الظلال المتمايلة ، ثم مالبت أن انتابنى الخوف ووقعت على الأرض ورحت أصرخ منادية أمى لكى تحملنى بين ذراعيها مرة أخرى .

وكتحت حتى الوقت الذى أصابنى فيه ذلك المرض اللعين أعيش فى منزل صغير لايمد سوى بضع خطوات عن المنزل الكبير الخاص بجدى وجدتى لأبى ، وكان منزلنا الصغير مقطى فى معقله بالكروم<sup>(٢)</sup> والنباتات المزهرة المتسلقة ونبات سلطان الجبل ، كما كان أيضاً المكان المفضل للطيور الطنانة والنحل ! . وكانت حديقة المنزل العتيقة الطراز بالسبة لى بمثابة فردوسى الخاص ، وفى ذلك المنزل قضيت أياماً رائعة وسعيدة لكنها لم تدم طويلاً ! . وقد مر بى ربيع قصير حافل بصداق طيور أبو الحن الخلاية والطيور المقلدة<sup>(٣)</sup> ، ومر صيف ثرى بفاكهته وأزهاره ، وخريف

(٢) الكروم : أشجار العنب .

(٣) الطيور المقلدة : طيور تسمى كذلك لأن من عاداتها تقليد أصوات الطيور الأخرى .

تمتدح فيه الحمرة بلون الذهب .. تتابعت تلك الفصول مجزلة عطاياها لطفلة شغوفة بالطبيعة مليئة بالسعادة والحبور ، ثم جاء شهر فبراير الممزن الكئيب ومعه المرض الذى أغلق عيني وأذنى دون أن يترك لى من الحواس والمقدرة على الشعور سوى ما لطفل حديث الولادة . وكان الطبيب الذى عادنى يرى أنه ليست أمامى فرصة للحياة ، لكن قدرة الله شاعت أن يبرأ جسمى من الحمى ذات صباح بصورة مفاجئة وغامضة على نفس النحو الذى كانت أصابتنى به .. وقد شملت الأسرة حينذاك نوبة فرح غامرة ، إذ لم يكن أحد يعلم - ولاحتى الطبيب - أنه لن يكون بمقدورى أن أرى أو أسمع مرة أخرى . وحين أعود بذاكرتى إلى فترة المرض تلك يختلط الأمر على وتشابك الصور فى ذاكرتى ، فأنا مازلت أذكر حنان أمى وحبها وتضحياتها بإراحتها من أجلى حين كانت نمرضنى فى تلك الأيام المصيبة . ومارلت أذكر سهري بعد نوم مضطرب وتحويل عيني الساخنتين الجافتين نحو الحائط بعداً عن الضوء الذى كنت قبل ذلك شديدة الوله به ، والذى صار وقتها يبدو لى أقل شدة وبريقاً عن ذى قبل يوماً بعد يوم ، وفيما عدا تلك الذكريات المحدودة بدا لى الأمر كما لو كان ضريباً من الخيال أو كأنه كابوس رهيب . وشيئاً فشيئاً اكتسبت التعود على الظلام والسكون اللذين شملاني ونسيت كلية أن الأمر كان مختلفاً تماماً فى الماضى ، وظل الحال كذلك حتى جاءت

معلمتى التى حررت روحى وأطلقتها من سجنها . لكننى كنت على مدى الشهور التسعة عشر الأولى من عمرى أستمع برؤية الحقول الخضراء الشاسعة الممتدة والسماء ذات اليريق والأشجار والزهور ، تلك المشاهد التى لم يستطيع الظلام الذى عيم على حياتى بعد ذلك أن يسلبنى إياها بصورة تامة .

ليس بمقدورى أن أتذكر ماذا حدث أثناء الشهور الأولى التى أعقبت مرضى ، لكن أذكر أنني كنت أمكث بين قراعى أمى أو أتلقي بثيابها حينما كانت تؤدي أعمالها المنزلية ، وأن يدنى كانتا تتحسسان كل شئ وتستشعران كل حركة ، وبهذه الكيفية أمكنتى أن أتعلم الكثير من الأشياء .

وسرعان ما صرت أشعر بالحاجة إلى الحديث مع الآخرين ، وبذات بعض الإيماءات تصدر عني ، فكانت هزة الرأس تعنى «لا» وطأطة الرأس تعنى «نعم» ، والجذبة باليد تعنى «تعال» ، والدفعة تعنى «اذهب» . وحين كنت أريد خبزاً كانت تصدر عني الحركات الدالة على تقطيع الخبز وتغطيته بالزبد . وحين كنت أرغب فى تناول «الآيس كريم» كنت أودى بيدي الحركية الدالة على تشغيل جهاز التجميد وأرتعش للتدليل على البرودة . وقد نجحت أمى فى جعلنى أفهم قدرًا كبيراً من الأمور ، وكنت دوماً أعلم حينما كانت تريدنى أن أحضر لها شيئاً ، كما كنت أسارع



يصعد السلم أو الذهاب إلى أى مكان آخر حينما كانت تظهر لى  
رغبتها فى ذلك .

وتحكت بالفعل من تفهم قدر كبير مما يدور حولى من  
أحداث ، وحين بلغ عمري خمسة أعوام تعلمت أن أصوى  
الملابس المغسولة وأضعها فى أماكنها بمجرد أن يحضروها ،  
وكت أميز ملابسى عن سائر الملابس ١ . كما كان يوسى أن  
أعلم متى تكون والنظى وعمتى فى سبيلهما إلى الخروج عن  
طريق تحس ملابسهما ييدى ، وكت أرجعهما دائماً أن  
بأخذائى معهما . وحين كان يأتى إلى منزلنا بعض الضيوف كانوا  
يرسلون فى طلبى عادة وكت ألوح ببدي لهؤلاء الضيوف عندما  
يفادرون المنزل ، وأعتقد أننى كنت أفهم جيداً فى ذلك الوقت  
ماذا يعنى كل ذلك . وذات يوم جاء بعض الرجال الأفاضل لزيارة  
أهلئ ، وشعرت بإغلاق الباب الأمامى والأصوات الأخرى الدالة  
على وصولهم (٢) فجريت أصعد السلم - قبل أن يتمكن أى  
شخص من إيقافى - من أجل تكوين فكرة عن ملابس الضيوف .  
ووقفت أمام المرأة - على النحو الذى أعرف أن الآخرين يفعلونه  
- ووضعت قدراً من الزيت على شعرى وغطيت وجهى بالمسحوق  
ثم وضعت نقاباً على رأسى بحيث غطى وجهى وانسدلت طياته

(٢) كان باستطاعة هالن أن تشعر بحركة الهواء الناجمة من فتح وإغلاق الأبواب .

على كتنى ، كما ارتديت شيئاً من ملابس أمى . وبهذه الهيئة  
الطريقة هيئت السلم لأعاون أسرنى فى استقبال الضيوف !

لست أعلم متى تحققت من كونى مختلفة عن الآخرين ،  
لكننى عرفت ذلك فعلاً قبل أن تحي معلمتى ، فقد لاحظت أن  
أمى وأصدقائى لم يكونوا يستخدمون الإساءات والإشارات التى  
اعتدت استخدامها حينما أريد فعل شئ معين ، بل كانوا يتحدثون  
بأفواههم ١ . وفى بعض الأحيان كنت أقف بين شخصين  
يتبادلان الحديث وأخذ فى لمس شفاههم ، ولم أكن بالطبع أفهم  
ما يقولونه ، وكان ذلك يصيبنى بالغضب ! وأحياناً كنت أحرك  
شفائى وأقوم ببعض الحركات المصيبة التى لامعنى لها بذراعى  
دون أية نتيجة . وفى بعض الحالات كان هذا القتل يصيبنى  
بالغضب إلى حد أننى كنت أندفع فى الرفس والصراخ حتى  
تنهك قواى . وحين تزايدت رغبتى فى التعبير عن نفسى صارت  
هذه الانفعالات تحدث كل يوم وأحياناً عدة مرات فى اليوم  
الواحد !

وكان والداى حزينين ومي حيرة من أمرى ، وقد أرادا لى أن  
ألتقى تعليماً لكنهما لم يكونا يعرفان السبيل إلى ذلك ، فقد كنا  
نعيش فى موقع بعيد كثيراً عن أى مدرسة للمكفوفين أو الصم ،  
وبدا من غير المحتمل أن يأتى أى شخص إلى مثل هذه المدينة

الصغيرة النائية «نوسكومبيا» لكي يتولى مهمة تعليم طفلة صماء عمياء مثلى .

وحين بلغ عمرى ستة أعوام سمع والدى عن طبيب فى «بليتيمور» كان بارعاً فى معالجة الكثير من الحالات التى تبدو مبعوساً منها ، وقرر والداى ذات يوم أن يأخذانى إلى «بليتيمور» ليرى ما إذا كان من الممكن عمل شئ من أجل عيى . وكانت الرحلة التى سالتُ أذكرها جيداً سارة للغاية ، فقد عقدت صداقات مع الكثير من الناس على متن القطار ، منهم سيدة أهدتنى علبة من الأصداق ، وقام والدى بشقب هذه الأصداق لكى أتمكن من نظمها فى خيط كالعقد ، مما أضفى على السعادة والهناء لفترة طويلة ١ . وكان محصل القطار (الكسارى) شغوباً بى أيضاً ، فكلما مر بى فى جولاته كنت أتعلق بذيل معطفه أثناء قيامه بتثقيب التذاكر بألة التثقيب .. تلك الآلة التى سمح لى باللعب بها فكانت بمثابة لعبة لطيفة ، إذ جلست القرفصاء فى ركن المقعد ورحت أسلى نفسى لعدة ساعات بعمل نقوب صغيرة بطريقة فى قطعة من الورق .

وصنعت لى عمتى دمية كبيرة من المناشف (القوط) ، وكانت تلك الدمية شيئاً شيقاً للضئك يبدو كأنه لاشكل له ، إذ لم يكن لها أنف ولا فم ولا أذنان ولا عينان بل ولاشئ يمكن حتى تخيلة

الطفل أن تتصور منه وجهاً حقيقياً . وبعض الأسباب كان غياب العينين من وجه الدمية يزعمنى أكثر من أى شئ آخر ، وقد خطرت لى فجأة فكرة طريقة فنهضت من المقعد وبحثت تحته لأجد معطف عمتى الذى كان مثبّتاً به خرزات كبيرة ، فجذبت خرزتين وأشرت إلى عمتى موضحة أننى أريدها أن تخيك الخرزتين فى وجه الدمية . فرنعت عمتى يدي إلى عينيها بطريقة استغامية ، فأومأت لها بالإيجاب فى شغف ، فقامت بحياكة الخرزتين فى الموضع الصحيح مما ملأنى بالسعادة ١ . وأثناء تلك الرحلة لم تتأبى أية توبة انفعال ، إذ توفر حولى الكثير من الأشياء التى تكفلت بشغل عقلى وأصابعى .

وحين بلغنا «بليتيمور» استقبلنا الطبيب بلطف ، لكنه لم يكن يوسعه أن يفعل شيئاً ، ومع ذلك قال لآبى : إن قدراتى تسمح لى بأن أتلقى تعليمًا ، ونصح والدى بالذهاب لمقابلة الدكتور «الكسندر جراهام بل» فى واشنطن لأن باستطاعته أن يقدم له معلومات عن المدارس والمعلمين المختصين بتعليم الأطفال الصم والمكفوفين . وقد ذهبنا إلى واشنطن على الفور عملاً بنصيحة الطبيب ، وكان والدى حزينا لأن الطبيب فى «بليتيمور» لم يكن قادراً على معاونتى ، إلا إننى لم أعلم بذلك وكنت سعيدة وفى غاية الإثارة لكونى أنقل من مكان لآخر .



## الفصل الثاني

هل

حدث يوماً يا عزيزي القارئ أن كنت في أعماق البحر وسط ضباب كثيف وبدا لك أن ظلاماً أبيض يحاصرك ، وراحت السفينة الكبيرة التي تحملك تتحسس طريقها بحذر وفي قلق نحو الشاطئ ؟ لقد كنت قبل أن يبدأ تعليمي تائهة مثل تلك السفينة ، فيما عدا أنني لم أكن أعلم أين يقع الشاطئ !

كان أهم يوم في حياتي على ما أذكر هو ذلك اليوم الذي جاءت إلي فيه معلمتي الآنسة «آن مانسفيلد سوليفان» . وإني ليملائي العجب حين أفكر في الفوارق بين هذين الشطرين من حياتي اللذين تم وصلهما في ذلك اليوم ٣ مارس سنة ١٨٨٧ قبل ثلاثة شهور فقط من بلوغي السابعة من عمري .

فبعد ظهيرة ذلك اليوم المثير خمنت من إيماءات والدتي ومن إكثار الناس من التردد على منزلنا أن شبقا غير عادي يوشك أن يحدث ، مما جعلني أذهب إلى باب المنزل وأنتظر في أعلى السلم . وكانت شمس ما بعد الظهيرة تتخلل أغصان وأوراق نبات سلطان الجبل الذي كان يغطي سقيفة الباب ، وكان يوسمى أن أستشعر دفئها بوجهي ، وكانت أصابعي تلمس الأوراق والأزهار المألوفة

ومع أنني كنت طفلة فقد شعرت على الفور بنفس الدفء والود الذي جعل الكثيرين من الناس يحبون الدكتور «بل» في ذات الوقت الذي كانوا يمجِّبون فيه إنجازاته الباهرة (٥) . إذ أجلسني الدكتور «بل» على ركبته حين كنت آخذة في فحص ساعتى ، وجعل الساعة تدق من أجلى . . وقد فهم هذا العالم الكبير إيماءاتي ، وأدركت ذلك مما جعلني أحبه على الفور ولم أكن بالطبع أحلم بأن تلك الزيارة ستكون الباب الذي أُمِر منه من الظلام إلى النور ومن الوحدة إلى الصداقة والمعرفة والحب !

نصح الدكتور «بل» والذى بالكثابة إلى مؤسسة «بركنز» في «بوسطن» - وهى مدرسة للمكفوفين تم فيها منذ سنوات تعليم فتاة عمياء وصماء - ليسأل ما إذا كان هناك معلم يمكنه أن يبدأ فى تعليمي . وقد فعل والذى ذلك على الفور ، وتلقى بعد عدة أسابيع رسالة رقيقة تحمل خيراً ساراً مفاده أنهم وجدوا معلمة . . كان ذلك فى صيف عام ١٨٨٦ ، لكن المعلمة - واسمها الآنسة «آن سوليفان» - لم تصل إلا فى شهر مارس التالى .

(٥) الدكتور ألكسندر جراهام بل Dr. Alexander Graham Bell عالم اسكتلدى الأصل ومخترع كبير انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٧٣ حيث شغل منصب أستاذ ليزياء الصوت بجامعة بوسطن . وأسفرت بحرته فى مجال نقل الأصوات لمسافات بعيدة عن اختراع جهاز الهاتف (الليفون) عام ١٨٧٦ ، وكانت له أيضاً بحوث مهمة فى تسجيل الصوت وفى العديد من مجالات الفيزياء الأخرى .

التي هي رموز وشارات الربيع . لقد ظلمت قبل ذلك أشعر  
بالغضب والمرارة لعدة أسابيع ، لكنني في ذلك الوقت كنت متعبة  
ومiale للسكينة والهدوء .. ودون أن أعلم بما يحبه لي المستقبل !  
وفي إحدى اللحظات شعرت بشخص **قادم** في اتجاهي ،  
واعتقدت أنه أمي فمددت يدي ، فأخذها **ذلك** الشخص القادم  
وأمسك بي واحتواني بين ذراعيه كأنما ليحرقني بنفسه ولهبأدري  
بصداقته ويظهر لي رده !

في ذلك الصباح الذي أعقب وصول معلمتي قادتني تلك  
المعلمة إلى غرفتها وأعطتني دمية ، وبعد أن لعبت بها لبعض  
الوقت ، قامت الأنسة «سوليغان» في هدوء وأناة بتهجي كلمة  
«دمية» على يدي بطريقة أبجدية الأصابع ، وقد أثارني هذا اللعب  
بالأصابع ، وحاولت أن أفعل نفس ما فعلته معلمتي .. وحين  
تجحت آخر الأمر في تهجي الحروف بالطريقة الصحيحة شعرت  
أنني فخورة للغاية بنفسي ، وجريت نحو أمي ورفعت يدي وأبيت  
عليها الحركات المعبرة عن كلمة «دمية» .

ولم أكن في ذلك الوقت أعلم أنني أنهجي كلمة أو أن هناك  
شيئاً اسمه «كلمات» ، كنت فقط وبساطة شديدة أقلد ما فعله  
شخص آخر ! . وفي الأيام التالية تعلمت أن أنهجي عدداً كبيراً  
من الكلمات دون أن أفهمها ، فقد تعلمت مثلاً كلمة «دوس» ،

«قبعة» ، «كوب» ، وبعض الأفعال مثل «يجلس» ، «يقف» ،  
«يمشي» . لكن معلمتي ظلت تيدل محاولاتها معي لأصابع  
عديدة قبل أن أفهم أن لكل شيء اسماً !

وفي أحد الأيام وبينما كنت ألعب بدميتي الجديدة أعطتني  
الآنسة سوليغان دميته القديمة أيضاً ، وبعدها تهجت علي  
أصابعي كلمة «د. م. ي. ه. » ، وحاولت أن تجعلني أفهم أن  
كلمة دمية تنطبق على كلتا الدميته .

وفي وقت مكر من ذلك اليوم دار بيننا نزاع على الكلمتين  
«ك. و. ب. » ، «م. ا. ء. » ، إذ لم أستطع أن أفهم أنهما  
مختلفتين <sup>(١)</sup> . ومن حين لآخر أثناء ذلك النهار كانت  
معلمتي تعود إلى مشكلة الكلمتين كوب ، ماء . كانت صبورة  
للغاية ، أما أنا فلم أكن كذلك ، فقد أصابني الغضب لأنني لم  
أستطع أن أفهم ، فأمسكت بدميتي الجديدة وألقيت بها على  
الأرض فتهدمت . وبعد أن اجتزت نوبة الغضب لم أشعر بأى  
أسف ، لأنني في ذلك العالم المظلم الذي كنت ما أزال أعيش  
فيه حينذاك لم يكن هناك مكان في حياتي لشعور عميق بالحب  
نجاه أى شيء . وأحضرت معلمتي قبعتي وعلمت من ذلك أننا في  
سبيلنا للخروج إلى أشعة الشمس الدافئة ، وقد جعلتني هذه

(١) نظراً للارتباط بين الكلمتين فالماء موجود دائماً في الكوب .

الفكرة إذا كان سى أن أسمى ذلك الشئ بالشمس الذى لم يكن  
بوسعى التعبير عنه بالكلمات «فكره» فى غاية السعادة !

ورحنا سير فى الطريق إلى البئر ، وكان أحد الأشخاص يسحب  
الماء بالظلمبة ، وقامت معصمتى بوضع يدي فى الماء المتدفق .  
وبينما كان نيار الماء لبارد ينساقط على يدي ، رحبت المعلمة  
تسجى على اليد الأخرى ببطء أولاً ثم بسرعة كلمة «ماء» وقد  
وقعت ساعتها هادئة وكل انتباهى موجه نحو حركة أصابعها ،  
وهجاء بدا لى أنى تذكرت شيئاً كنت قد سئله . وشعرت بصوت  
مرتجش . وتكشف لى بطريقة ما أحد أسرار اللعبة إذ علمت حينئذ  
أن «م ا ء» تعنى ذلك الشئ السارد الرائع الذى كان يتدفق  
على يدي . لقد أيقظت لك الكلمة الحية روحى وأطلقتها من  
سجنها «٢٦»

عذرت البئر وأنا أنحرق شوقاً لمنعم ، فقد عرف أن لكل شئ  
اسماً ، وأنه مع كل اسم تسر فكرة جديدة . وبدا لى وسع فى  
طريقنا إلى المزل أن كل شئ أسمى معنى بالحياة ، ذلك لأنى  
رأيت كل شئ من خلال الفهم الجديد المختلف الذى دخل

٢٦ فى تلك اللحظة العسيرة أدركت هيلو كيلر معنى الماء بكيانه المستقل حين  
يصلط من الظلمة ولا يحتويه الكوب ، وتذكرت لفظ «ماء» الذى تعلمته فى  
صغرها ، فادركت فجأة أن الأسماء يمكن التعبير عنها بأسماء يطلق بها الصوت  
البشري . وكانت تلك البداية الحقيقية لرحلتها العظيمة مع التعلم

حياتى هجاء . وحين دخلت المزل تذكرت الدمية التى كسرتها  
فتحست طريقى إلى القطع المتناثرة وحاولت أن ألصقها ببعضها  
مرة أخرى .. واعترضت عنى بالدموع لأنى أدركت سوء ما  
فعلت ، وشعرت لأول مرة فى حياتى بالأسى والدم . وقد نعمت  
فى ذلك اليوم ، عدداً هائلاً من الكلمات الجديدة ، ولست  
أذكرها جميعها لكسى أتذكر من بينها الكلمات التالية : «أم ،  
أب ، أخت ، معلم ، وكان من الصعب فى ذلك اليوم أن يعثر  
أحد على طفل آخر أكثر منى سعادة حين رقدت فى سريري فى  
سك اللينة ورحت أفكر فى كوان لسرور التى جنبها إلى ذلك  
اليوم . وإذا بى لأول مرة فى حياتى أنطلق فى شوق إلى طلوع  
اليوم التالى !

مارلت أذكر الكثير من الأحداث التى وقعت فى صيف عام  
١٨٨٧ فى أعقاب الاستيقاظ المماجع لروحي فى ذلك اليوم الذى  
حدثتكم عنه ، إذ تعلمت اسم كل شئ كان بوسعى أن أسمى  
بيدى ، وكنت كلما تداولت بيدي المريد من الأشياء وعرفت  
أسماءها واستخداماتها شعرت بأننى أكثر قرباً عن دى قبل من  
بقية العالم !

وحين جاء الربيع أخذتنى الأنسة سويلمان من يدي فى جولة  
عبر الحقول ، حيث كان الرجال يمهدون الأرض للزراعة على



المطيف كثيراً لدرجة أن الأنسة سوليفان اقترحت أن نتناول عشاءاً  
تحت الشجرة ، ووعدها أن أبقي هادئة حتى نذهب إلى المنزل  
لإحضار الطعام .

ودعيت الأنسة سوليفان إلى المنزل بالفعل ، وكان كل شيء  
هادئاً مطمئناً لِمُضِ الوقت . لكن الشجرة أصابها تعمر لم يكن  
في لحسان ، إذ احتسني فجأة كل ضوء الشمس من الجو ،  
وأدركت أن لسماء اسودت لأن كل الحرارة التي كانت بالسبب  
بي دليلاً مؤكداً على وجود الضوء احتضت من حولي . وشمنت  
رائحة غريبة نفوح من الأرض ، وعرفتها . إنها الرائحة التي نفوح  
دائماً قبل لمواسم الرعدية ، وشمرت بحرف شديد وبأنني وحيد  
تماماً ومقطوعه عن الأصدقاء وعن الأرض النابتة ، وبأن لجهنم  
يحيط بي من كل جانب . وسع ذلك بقيت أنتظر في هدوء وإن  
كنت في عابة العزع ، وتضمنت أن تعود معلمتي بسرعة ،  
ومعيت أيضاً بل وقيل أي شيء آخر أن أعبط من على تلك  
الشجرة وأنخلص من أسرها ؛

ورأيت لحظة صمت محيف ، ثم بدأت كل أوراق الشجرة  
تتحرك وأحدثت الشجرة في مجموعها برنجف ، وهبت فجأة ربح  
قوية كان من الممكن أن تلقي بي من على الشجرة لو لم أُنشِث  
باصرع بكل ما أوتيت من قوة . وصارت الشجرة تتموج بعصف

صفاف بهر «نيسبي» . وهناك وأنا جالسة على العشب نقيت  
أول دروسي حول أساليب الطبيعة ، إذ مضت الأنسة سوليفان  
تشرح لي كيف تجعل الشمس والمطر النباتات تنمو ، وكيف ينبت  
العيور أعشاشها ، وكيف يجد السنجاب والظبي والأسد وكل  
مخلوق آخر غذاءه ومأواه . وكنت كلما زددت معرفة بالأشياء  
واتصمت دائرة معوماني ، شعرت بأنني أكثر سروراً واعتزازاً بالعالم  
المحيط بي . فقبل أن أعلم كيف أجرى العمليات الحسية أو  
أصف هيئة لأرض وخصائصها الجغرافية ، علمتني الأنسة  
سوليفان أن أحد الجمال في شذى العايات العطر ، وفي أوراق  
العشب الرقيقة الندية ، وفي حنايا بد أحتي الوليدة . لقد جعلت  
الآنسة سوليفان الطبيعة جبراً لا يتجزأ من أفكارى المبكرة ،  
وجعلتني أشعر بأنني قريبة من لأشياء المعمة بالحياة المحيطة بي !

وفي تلك الفترة تقريباً مرت بي محنة علمتني أن الطبيعة ليست  
على حالها دائماً .. ففي أحد الأيام وبينما أنا ومعلمتي عائدتان  
من جولة طويلة ، وكان الصباح في ذلك اليوم رائعاً لكنه مال إلى  
ارتفاع درجة الحرارة في وقت عودتنا كما جعلنا نتوقف مرين أو  
ثلاثاً لنستريح في ظل إحدى الأشجار ، وكانت وقفنا الأحيرة  
تحت شجرة وكهية قريبة للغاية من منزلنا . كان الظل الوارف  
طبيعاً ، وكانت الشجرة سهلة التسلق حتى أنني تسكنت بمعونة  
معلمتي من الصعود ولجلوس بين فروعها . وراقاً ذلك المكان

وسط الرياح لعاصفة ، وتفصفت الأغصان الصغيرة وراحت تتماقظ حولي كالطر ، وتمكنتي رغبة في القمر على الأرض لكن الحروف جعلني أمكث حيث أنا في مرفعي فوق الشجرة . واستمررت الأغصان تتحرك حولي وروح من حين لآخر تشعر بهرة اصطدام كما لو أن شيئاً ثقیلاً قد سقط على الشجرة ، وكانت الصدمات تتغل إلى الفرع الذي كنت أجلس عليه وفي الوقت الذي بدأت أفكر فيه في أن الشجرة سوف تسقط وأنى سأسقط معها ، إذ يد معلمتي نمتد فجأة لتمسك بي وتساعدني على التهيؤ . فأمسك بها وأنا سعيدة للغاية لشعوري مرة أخرى بالأرض مستقرة تحت قدامي لقد تعلمت درساً جديداً فالصعوبة ليست دائماً باسمه وهادئة بل هي متقلبة وشرسة أحياناً!

وبعد هذه ساعة امتنعت لفترة طويلة عن محاولة تسلق أية شجرة أخرى ، إذ كان مجرد التفكير في ذلك يملأني رعباً . لكن شجرة سبط رائحة ومرهرة تمكنت ذات يوم من جعلني أقهر محاولي ، ففي صباح يوم من أيام الربيع الجميلة كنت أجلس بممردي في الحديقة أقرأ<sup>(٣)</sup> ، عندما شممت رائحة عطرة حلوة العبير ، فنهضت ومددت يدي ، وبدا كأن روح الربيع ذاتها نملأ جوانحي ، وروح أسائل نفسي ماهي تلك الرائحة ؟ .. وفي

(٣) كانت هيلين في ذلك الوقت قد تعلمت القراءة بطريقة (برايل)

الدقيقة التالية تعرفت على رائحة أرهار السبط ، فتلمست طريقتي إلى بهايه لحديقة إدراكاً مني بأن شجرة السبط توجد بالقرب من السياج حيث يتصطف الطريق نعم ، كانت هناك وبها من شجرة رائحة الجمال وهي برغل في أشعة الشمس ، وكانت أغصانها مثقلة بالأرهار حتى تكاد تلمس الأعشاب الطويلة . وقد احترت طريقتي خلال الأرهار إلى الجذع الصخم ووقعت إلى جانب محاولة أن أقرو ماذا أفعل ثم إذ بي أصعب قدمي في لفرحة الراحنة بين الفرعين الكبيرين وأجذب نفسي لأعلى نحو شجرة وكان من الصعب علي أن أعلق بها لأن الفرعين كانا صخمين وكان القلب<sup>(٤)</sup> خشباً يؤدي بدائي ، مكنتي شعرت أنني فعل شيئاً مشيراً وغير معتاد ، لد واصلت التسوق لأعلى ولأعلى حتى بنعت مقعداً صغيراً كان شخص ما قد أعده في الماضي البعيد ثم بما ليصبح حراً من الشجرة نفسها وقد جنست هناك لفترة طويلة وأل أشعر كأنني أجلس فوق سحابة وبعد ذلك صرت أقصى ساعات طويلة بهيجة على شجرتي تلك وأنا مستغرقة في التفكير وفي الأحلام الوردية !

\*\*\*\*

(٤) القلب الغلاف الخارجي البني اللون المحيط بجذع الشجرة

## الفصل الثالث

صار

مفتاح اللغة فى يدى ، وكنت متشوقة إلى تعلم طريقة استخدامه . ومن المعروف أن الأطفال القادرين على السمع يتعلمون اللغة دون أدنى جهد ، فهم يسمعون الآخرين يتحدثون ويستمتعون بمحاولة إصدار الأصوات نفسها ، أما الطفل الأصم فيبقى له أن يتعلم اللغة بطريقة بطيئة وبأسلوب عالى ما يكون مرهقاً ومؤلماً . لكن برغم هذا البطء والإرهاق والإيلام ، فإن نتائج عملية التعلم عادة مذهلة .. فنحن نتقدم بالتدرج من مجرد معرفة أسماء الأشياء إلى فهم الأفكار العميقة التى يشتمل عليها بيت من شعر شكسبير ، وهذا فى الواقع تقدم كبير للغاية !

فى أول الأمر عندما كانت معلمتى تعرفنى بشئ جديد كنت ألقى عليها عدداً قليلاً للغاية من الأسئلة ، فأفكارى حينئذ لم تكن واضحة ، ولم أكن أعرف الكثير من الكلمات وأساليب التعبير ، لكننى عندما اتسمت معرفتى بالأشياء وتعلمت المزيد والمزيد من الكلمات صار باستطاعتى أن ألقى بعدد أكبر من الأسئلة ، وصرت أعود مرات ومرات إلى الموضوع نفسه فى شغف تام إلى المزيد من المعلومات . وفى بعض الأحيان كانت معرفة

كلمة جديدة تجعلنى أذكر تجربة أو تجربة معينة مرت بى فى الماضى

وعنى سبيل المثال فإننى أذكر ذلك الصباح الذى سألت فيه لأول مرة عن معنى كلمة «حب» ، وكان ذلك قبل أن أتعلم الكثير من الكلمات . ودعوى أحدى لكى لكم هذه الواقعة : فقد وجدت بعض أزهار الربيع المبكرة الظهور فى الحديقة فأحضرتها إلى معلمتى ، فحاولت بدورها أن تقبلنى كنوع من التعبير عن الامتنان ، لكنى فى ذلك الوقت لم أكن أرغب فى أن يقبلنى أحد فيما عدا أمى . فأحاطتنى الأنسة سوليفان بذراعيها برفقة ولطف وبهجت على أصابعى الكلمات التالية «أحبك يا هيلين» ، فقلت «ما هو الحب ؟» فجدبتنى لتقربى إليها أكثر وقالت «إيه هنا» وأشارت إلى قلبى ، فحيرتنى كلماتها العاطفة كثيراً لأننى فى ذلك الوقت لم أكن أعرف أى شئ مالم يكن باستطاعتى أن أُلهمه .

ورحت أنشمم الأزهار فى يدها وأسألها تارة بالكلمات وتارة بالإيماءات سؤالاً معناه «هل الحب هو الرائحة الجميلة للأزهار؟» .

فالت معلمتى «كلا» .

فكرت ثانية ، وكانت الشمس تسطع علينا فى ذلك الوقت ،



فأشرب في الأثناء الذي يجيء منه الدفء وسألتها ثانية «هل هذا هو الحب ؟» .

بدأ لي وقتها أنه من غير الممكن أن يكون هناك شيء أكثر جمالاً من الشمس التي شع الالوان فتجعل كل شيء ينمو ويودهر، لكن لأسرة سوليفان هزت يدها بإساره إلى المعنى ، مما جعلني أصاب بحيرة كبيرة وأسمر بالإحباط ! وذهبت في تفكيري إلى أنه أمر غريب للغاية ألا نستطيع معنيتي أن نوضح لي ماهو الحب ! .

وبعد ذلك بيوم أو أكثر كنت أنظم (ألصم) مجموعته من الحشرات المختلفة لأحجام في حبط ، وقد تبعت في ذلك طريقة معينة هي أن أنظم حورتنين كبيرتين ، ثم ثلاث صغيرات ، ثم اثنتين كبيرتين ، ثلاث صغيرات وهكذا . وقد وقعت أثناء ذلك في الكثير من الأخطاء ، فأحدثت لأسرة «سوليفان» بشير إلى أخطائي مره بعد مره في صبر وأناة ولطف ، فمضيت بعناية وهتمام أكبر بديل محاولات أخرى لأنمكن من تعلم الحشرات بالطريقة الصحيحة ، وقد ضلعتني الأسرة سوليفان بأن مست جهتي وتهجت على أصابعي مع الأمر «فكري» !

ومي ومضة مفاجئة عرفت أن الكلمة هي اسم لما يدور في رأسي ، وكانت تلك المرة الأولى التي أنفهم فيها بوعي تام سم

شيء معنوي لم يكن باستطاعتي أن ألتسه بيدي !

ومكثت هادئة لعمرة طويلة لم أكس خلالها أفكر في الحشرات اتى في يدي ، بل كنت أحاول أن أجد معنى كلمة «حب» ، لأنني عرفت ساهتها ذلك النوع من الكلمات الذي تنمى إليه . وكانت الشمس محتفية وراء السحب طوال ذلك اليوم ، وكانت هناك حبات قصيرة من المطر ، لكن الشمس سطعت فجأه بكل البرودة التي تعرفها بها ولايتنا «الأبداء» الواقعة في الجنوب الأمريكي .

ومرة أخرى عدت لأسأل معلمتي «أليس هذا هو الحب ؟»

فأجابني «الحب شيء مثل السحب التي كانت في السماء قبل أن يسقط الشمس» . ثم راحت تشرح لي قائلة «إنك يا هيلين لا تستطيعين أن تلمسي السحب ، وأنت تدركين ذلك ، لكنك تشعرين بالمطر وتعرفين كم تكون الأرهاار والأرض العطشى سعيدة حين يصل إليها ماء» بعد يوم حار . وأنت لايمكنك كذلك أن تلمسي الحب ، لكنك تعرفين المشاعر الحوة التي يشها في كل شيء ، فبدون المشاعر العظيمة لن تكوني سعيدة أو تكون لك رغبة في اللب» !

صر عفتي مليئاً بالحقيقة الجميلة ، وشعرت بالأوهام غير المؤنيه التي تربط بين رزحي وأرواح الآخرين . وقد كانت الانسة

أصوب قبل أن يكون باستطاعتى أن أفكر فى الشيء المناسب وأن أقوله فى الوقت المناسب ! .

والصم يجدون من الصعب عليهم للمعاية أن يتعلموا فن الحديث ، وتزايد هذه الصعوبة إلى حد كبير فى حالة الأشخاص الذين يجمعون بين الصمم وكف البصر ، فهم لا يستطيعون سماع نعمة الصوت التى يستخدمها المتحدث الآخر أو ملاحظة ملامح وجهه ، كما أنهم لا يستطيعون بدون معاونة الآخرين أن يعبروا من درجات أصواتهم ارتفاعاً وانخفاضاً بالكيفية التى تجعل لكلامهم معنى مفهوماً لدى الآخرين ! .

وكانت الخطوة المهمة التالية فى عملية تعليمى أن أتعليم القراءة ، ولما كان برسمى أن أتتبع بعض الكلمات ، فقد أعطيتى معلمتى قصصاً من الورق السميك مدونة عليها كلمات بحروف بارزة ، وتعلمت بغيرى أن كل كلمة مصبوعة تقوم مقام شيء أو فعل أو وصف ، وكان لدى إطار يمكننى أن أرتب فيه الكلمات وأكون منها بعض الجمل القليلة ، لكننى حتى قبل ذلك كنت أصنع جملاً بسيطة تدور عن الأشياء الموجودة فى العرفة ، فمثلاً وجدت قطع الورق الممثلة للكلمات «دمية» ، «على» ، «السرى» ، ووضعت دميته على السرى ثم رتبت الجملة على النحو التالى : الدمية على السرى .

سوليفان - منذ أن بدأت فى تعليمى - تحدثت إلى כמה لو كانت تحدثت إلى طفل قادر على أن يسمع ، مع فارق واحد هو أنها كانت تتتبع كلماتها على أصابع يدي بدلاً من أن تتحدث بها . وعندما كنت لا أعرف الكلمات والتعبيرات اللازمة للإجابة عن سؤالها كانت توفرها لى ، بل وكانت أحياناً تقترح على ما أقويه حين كانت مقدرتى على التعبير تخذلى !

استمر الأمر على هذا المتوال على مدى عدة سنوات ، لأن الطفل الأصم لا يمكنه أن يتعلم فى شهر واحد - أو حتى فى عامين أو ثلاثة - كل الكلمات والتعبيرات المستخدمة فى الحياة اليومية العادية . أما الطفل لصغير القادر على السمع فهو يتعلمها من سماعها مراراً وتكراراً ثم ممارسة نطقها بنفسه ، فالحوار الذى يستمع إليه فى منزله يشهد عقله ويجعله يعمل ، ويوحى إليه بمصوغات الحديث ، ويدفعه إلى الرغبة فى التعبير عن أفكاره الخاصة . وهذا التبادل الطبيعى للأفكار لا وجود له فى حالة الصم الأصم ! وكانت معلمتى مدركة لهذه الحقيقة ، وقد عزمت على أن تملأ هذه الفجوة ، وكانت تعمل هذا بأن تكرر لى بعض استطاعتها ما كانت تسمعه بالوسط ، وبأن توضح لى كيف يمكننى المشاركة فى الحديث . ومع ذلك انقضى زمن طويل قبل أن تصبح لدى الرغبة فى الشروع فى الحديث ، وانقضى زمن

وقد أحرسى الأتمة سوليفان أسى فعت ذات يوم بتثبيت كلمه  
«بت» على فستاسى بدبوس ثم وقعت داخل دولاب الملابس ،  
ووصعت معى فى الدولاب الكلمات التالية «فى دولاب  
الملابس» وعلى ذلك يكون المعنى إجمالاً ، «فى دولاب الملابس  
بت» .

وقد أحببت اللعب بهذا الأسلوب ، وحيثاً كنت أنا ومعلمى  
لعب هكذا لعدة ساعات متوالية ، حتى غطينا كل شئ فى العرفة  
بقطع الورق المربعة فى صورة جمل .

وكانت قطع الورق المطبوعة مرحلة أولى على طريق الكتاب  
المطبوع ، وقد حصلت على كتاب «القراءة الأولية» وبحثت أبحث  
عن الكلمات التى أعرفها ، وكنت فى عاية السعادة كلما وجدت  
كلمة مأثوفة ، وكان الأمر أشبه بلعبة «الاستعمارية» تلك هى  
الطريقة التى بدأت بها فى تعلم القراءة ، وسوف نشير فيما بعد  
إلى الوقت الذى بدأت فيه أقرأ القصص الكسبة

طلت لفترة طريقه للعب لا أتقى دروساً منتظمة ، فحتى فى  
الوقت الذى كنت مسعقة فيه فى الدراسة بعد كانت معلمتى  
الأتمة سوليفان تفرص على أن يبدو الأمر أشبه باللعب منه  
بالدراسة ، وكانت نستعين دائماً بقصة أو قصيدة جميلة لتربطها  
بكل ما كانت تعلمنى ، وكانت كلما أثار اهتمامى أو سرنى شئ

تركز عليه فى حوارها معى إلى حد بدت معه هى أيضاً كما لو  
كانت طفلة صغيرة . وليس باستطاعتى فى واقع الأمر أن أفسر سر  
ذلك التعاطف الحاصر الذى كانت لآتمة سوليفان تبديه نحو  
رغبتى والأمور التى تسرى ، وربما كان ذلك راجعاً إلى درابنها  
المسقة بأحوال المكسوفين وإلى مقدرتها المدهشة على وصف  
الأشياء . وكانت رهى تلقى على دروسها حريصة كل الحرص  
على أن يبدو كل شئ حقيقياً ، ولهد السبب مارالت هذه  
الذكريات مطبوعة فى ذاكرتى حتى الآن !

وكما نقر ومضى فى الدراسة خارج المنزل وأنا كما يحب  
بصاات والمروج الفيحة اشمسة أكثر من الأماكن المظلمة ،  
بهذا السبب فى روائح شجار الصوبر و الكروم لبرية ظلت دائماً  
وثيقة لصلة فى دهنى بدروسى لمبكرة ! وكان لكل نوع من  
لكائنات لحيه دور فى عملية تعلمى . فأنا قد تعلمت من كل  
شئ يمكنه أن يثر أو يظن أو يردد أو يرهز ، حتى أنى كنت أفسد  
الحشرات بين يدي لتشدو بالأصوات التى كنت أعتبرها أعذب  
وأحلى لأصوات ، كما كنت أصح الكناكيت الصغيرة المرحوة  
لأجسام بين رحتى ، ومثت بالأرهار البرية الجميلة بأصابعى  
وأشعر بالريح كلما هت بين أعواد البذرة ، وأشعر بحصانى يفت  
الهواء من سحره كلما هممتا بالاستعداد لركوبه



وفي بعض الأحيان كنت أنهض في الفجر وأخرج إلى حديقة والدي لا يزال مستقراً على الأعشاب والأزهار ، ومازلت أذكر كيف كنت أصفح الورود الغضة بيدي فأشعر بأن سائر الأزهار تلوح لي بالتحية وفي بعض الأحيان كنت أمسك بحشرة يتصادف وجودها داخل زهرة قمصت بقطعتها ، فأشعر بأزيز احتكاك جناحيها معاً ، ذلك الأزيز الناعم عن شدة خوف هذا المخلوق الضئيل حين أمسكه بيدي .

ومن المناطق التي أحببتها أيضاً حديقة نمت فيها أشجار الفاكهة ، وكانت الفاكهة تبدأ في الصباح في أوائل شهر يوليو فتبدو حبات الخوخ الكبيرة الغضة كأنها تستقطب بين يدي . وكانت لريح تحمل نمار النعنع تتساقط على الأرض عند قدمي ، فأخذ مي جمعها في دبل ثوبى وأنا أشعر بالسعادة التي يشعربها الأطفال عادة في مثل هذا الموقف ، ثم هرع عائدة بها إلى المنزل .

ونعثلت برهتنا المفضلة في ذلك الوقت في السير على شاطئ نهر تينيسى حيث كنا نقضى أوقاتاً طويلة ، وفي ذلك المكان لعبت كثيراً وتعلمت مبادئ الجغرافيا ، وكنت أبني سدوداً من الأحجار الصغيرة ، وأصنع جزراً وبحيرات ، وأحفر أنهاراً . كنت أفعل كل ذلك على سبيل اللهو والمرح ودون أن أعلم أنى ألتقى

دروساً وفي ذلك المكان استمتعت أيضاً في دهشة مرابدة إلى لآلئ سوليفان وهي نصف لي كوكب الأرض الكروى المسطح بما عليه من براكين وأهوار جارية ونلاحات<sup>(١)</sup> ، وكذلك الكثير الكثير من الأشياء لعجبية العربية ! . وكانت معلمتي تصحح حركاتي مجسمة من الطين ليتسنى لي أن أتخسر الجبال والوديان وأتتبع مسارات الأنهار بأصابعي ، وقد أحببت ذلك أيضاً . وكان هناك شيء واحد عامض يحيرني وهو انقسام العالم إلى مناطق ، وكذا وجود القطبين الشمالي والجنوبي ! . وكانت معلمتي تمد بعض الحيوط لتوضح لي حدود مناطق لعالم المختلفة ، وتستعمل عصاتين صغيرتين لتمثيل القطبين . ولذلك فما زال تفكيرى حتى اليوم يذهب إلى دوائر أخيط كلما شار واحد من ساس إلى المنطقة المعتدة<sup>(٢)</sup> . بل ربما كان بوسع أى شخص أن يحصى أعتقد أن الدببة البيضاء (الدببة لقصية) تتسلك القطب

١١ . شلالات انشار إليها هي العلاجات الموجودة في الطبيعة glaciers ، وهي عبارة عن كتل هائلة من الثلوج تغطي قسم الجبال العالية بصورة دائمة ، وتتحرك أجزاء منها دائماً إلى أسفل الوديان . ويوجد بدلاً منها يتكاثف بخار ماء الموجود في الجو بفأثير هائلة على تلك القمم الجبلية

٢ . المنطقة المعتدلة temperate zone هي المنطقة من سطح الكرة الأرضية التي تتميز بمناخ معتدل (من حيث درجات الحرارة) على مدار العام وهناك في الواقع منطقتان معتدلتان :

• المنطقة المعتدلة الشمالية وتقع بين مدار السرطان والدارة القطبية الشمالية  
• المنطقة المعتدلة الجنوبية . وتقع بين مدار الجدي والدارة القطبية الجنوبية

صغيرة من الأحجار تحمل آثار أقدام طيور أو آثار سائنات استرخى  
الدقيقة التكوين . وكانت تلك الأشياء هي المفاتيح التي فتحت بي  
أبواب كنوز جديدة من المعرفة ، فقد رحت أصبت والرعدة تناسبني  
إلى قصر لأسنة سوليفان عن الوحوش المصلاقة الخيعة ذات  
الأسماء المعقدة التي عاشت وانقرضت <sup>(٥)</sup> قبل ظهور الإنسان  
على الأرض ومن العرب أنسى مكث لقصر طويلة أحسن تلك  
المخلوقات القريبة !

وفي مرة أخرى أهديت إلى صدفة جميلة ، وعرفت في دهشة  
لأنفس وسرورهم أن محبوقاً بحرياً صغيراً قد بي تلك الصدفة  
يعيش بداخلها ، كما عرفت أيضاً أن أجسام الحيوانات البحرية  
الصغيرة قد صممت جزراً يكملها في المحيط الهادى <sup>(٦)</sup> وأن  
لكثير من لبلاد لديها تلال جبيرية ببصاء تنحت في العصور  
الجبرولوجية البعيدة من تراكم أجسام تلك المخلوقات البحرية

٥. الانقراض extinction موت نوع من الكائنات الحية بجميع أفرادها بحادث  
يعتلى تماماً ويندثر والوحوش ايعار إليها هي «الديناصورات»  
(٦) تشير مهلين إلى الجزر المرجانية Coral Islands التي تصنعها تجمعات كبيرة  
من حيوانات المرجان البحرية ، حيث تبقى بعد موتها المادة الصلبة المرجانية  
الموحددة في أجسامها لتكون هذه الجزر . وبالإضافة إلى المحيط الهادى توجد  
لجزر المرجانية في مناطق بحرية أخرى منها البحر الأحمر الذي توجد به  
مجموعة من الجزر والخواجر المرجانية الرائعة التي تعد ضمن لزوات مصر  
الطيحة .

ويدر لي أن الحساب هو العلم الوحيد الذى لم أكن أحبه ،  
فبعد البداية لم يكن لدى اهتمام بذلك العلم الذى يتصب  
اهتمامه على الأعداد . وقد حاولت لأسنة سوليفان أن تعلمنى  
كيف أخرى الحسابات باستخدام مجموعات الخرز المظومة في  
الحيوط ، وكيف أجمع وأطرح عن طريق استخدام مجموعات من  
أعواد القش ، لكنى كنت دائماً أفقر إلى العصر اللازم لإجراء  
ذلك العمل على أكثر من حصر أو ست مجموعات في وقت  
واحد . وكنت متى قمت بذلك أشعر بأنى أنحرت ما يكفى  
لذلك اليوم وأسرع إلى خارج المنزل لألعب !

وبعس الطريقة السهلة البسيطة تنقيت دروسى عن حياة  
الحيوان والسان ، وقد أهدى أحد الأصدقاء مجموعته من  
الحفريات <sup>(٧)</sup> عمارة عن أصداف صغيرة رائعة التكوين وقطع

٣١ القطب الشمالى North pole النقطة الواقعة في أقصى شمال الكرة  
الأرضية وهو ليس جبالاً كى صلقة ابدية القطبية . ويقابل القطب الشمالى  
نقطة أخرى تقع في أقصى جنوب الأرض وتسمى القطب الجنوبى South  
pole .

(٨) الحفريات fossils نباتات أو حيوانات قديمة عاشت في عصر جيولوجية  
سابقة ثم ماتت وتحجرت وظلت محتفظة بمظهرها الخارجى . وقد تكون  
الحفريات عبارة عن أجزاء فقط من النباتات والحيوانات ، كما قد تكون مجرد  
آثار تلك الكائنات مطبوعة على الطين المعجم .

الصغيرة . وبعد أن عرفت الكثير الكثير من المعلومات المثيرة عن الحياة وعن عادات الكائنات التي تعيش في البحر ، قرأت لى معلمتى قصيدة رائعة اسمها «قوقع النوتى» ، وهى قصيدة تروى كيف يننى قوقع النوتى صدفته ليعيش داخلها ، لكن الأسفة موليفان شرحت لى أن القصيدة تتحدث أيضاً وبطريقة غير مباشرة عن كيميائية نمو عقل الإنسان . فالنوتى يحول المواد التى يحصل عليها من الماء إلى جزء من مادة جسمه ، وبالطريقة ذاتها فإننا نحول ما نعلمه من معارف وأفكار إلى جزء من تركيبتنا العقلية والنفسية

وتلقيت أيضاً دروساً عن نمو البباز ، إذ أحضرنا ربيقة روصهاها بحباب نافذة حر من خلالها أشعة الشمس وسرعان ما راح الببازم الخصرء تفتح بالكيفية التالية أحدث الببازات الخصرء الرفيعة المحيطة بالأرهار تفتح بيضاء نكى تتيح لنا - على ما كسب اعتقد - أن نرى ما يدخلها من الجمال . ثم أعقب ذلك تفتح الببازات (الأوراق المنوية المكونة لبرهرة) . وعملية التفتح هذه ما إن تبدأ حتى تتقدم بسرعة وبطريقة منتظمة لتنتهى بالتفتح الكامل للأرهار ، وهناك دائماً برعم أكبر من سائر الببازم يسبقها فى التفتح ، وكانت الببازم تفتح واحداً فى إثر الآخر إلى أن يحول البباز كله إلى كيان رائع الجمال فواح العبير .

، ذات مرة كان لدينا أحد عشر حيواناً من حيوانات أبو ذبابة<sup>(٧)</sup> فى بناء رجاجى وصعدنا على حافة نافذة مديقة بالمباب . ومارلت أتذكر ذلك الشغف الذى كان يملأ رجاجى وأنا أقوم باستكشاف تلك الكائنات الطليقة ، وكان من دواعى المرح أن أصعب يدي فى الإماء الرجاجى فأشعر بحيوانات أبو ذبابة تسبح حولها وتترلق بين أصابعى . وهى أحد الأيام قفز أبو ذبابة طموحاً من الأناء وسقط على الأرض ، وحين وجدته يدا لى أقرب إلى الموب منه إلى الحياة ، وكاتب العلاقة الوحيدة الدالة على الحياة حركة ضعيفة يقوم بها أبو ذبابة ، لكننى حين أعدته إلى الماء إذا به يسارع إلى تساحه هماً وهناك كما لو كان فى حاية اسمادة . لقد قفز أبو ذبابة قفزه الكبيرة ورأى العالم العظيم من حوله ، وبعدها صار قاعاً نابقاء فى إياه الرجاجى اللطيف حتى كبر وتحول إلى صمدع ، ثم ذهب ليعيش فى الركة المليئة باببازات المورقة الواقعة فى طرف الحديقة .

وهناك مكث يشدو بأحنى الأصوات ويحس لىالى اصعب إلى يوالى ساحرة بذبابة .

٧ أبو ذبابة tadpole . حيوان صغير يعتبر أحد أطوار حياة الضفدعة ، ويحس برجوه ذيل طويل وجسم شبه بالسمكة ووجود الغياشيم التى يتنفس بها فى الماء . وعندما يكبر وتحول إلى ضفدعة يختفى الذيل بالتدريج وتختفى غياشيم حيث تعتمد الضفدعة الكاملة على التنفس الرئوى والتنفس من طريق الجلد .

## الفصل الرابع

### كان

أول عيد يحلّت بعد مجيئ الأسسة سوليفان إلى توسكومبيا يمتزج حدثاً عظيماً ، وفيه قام كل فرد من أفراد الأسرة بإعداد مفاجئة لي ، لكن أكثر ما سربى هو أنني أنا والأسسة سوليفان أعددتا مفاجآت لكل شخص آخر وكان الموضوع لدى أحاط بالهدايا من كبير دوعي سروري واهتمامي ، وقد فعل أصدقائي كل ما بوسعهم من أجل إثارة اهتمامي ، فقاموا بتهنئتي بعصر العشاء على يدي ثم توقفوا عن كمال حمل متصهين بأنهم يلعبون تقريباً بالسر وشعلت أنا والأسسة سوليفان لعبة التخمين التي قادني في تعلم الكثير عن شجارات اللعبة فحصل من لي دروس أخرى ، كان من الممكن أن ألقاها ، وفي كل أمسية كنا نحلس حول نار المدفأة الواجدة ونأخذ في ممارسة لعبة التخمين هذه ، وصارت اللعبة برداد إلانة أكثر فأكثر كلما اقترب موعد العيد !

وفي اليوم السابق لعيد أقام تلاميذ مدرسة توسكومبيا الابتدائية حفلاً دعويي إليه ، وكانت تتوسط قاعة الاحتفال شجرة جميلة مصانة بشموع صغيرة ومغطاة بمواد لينة واهديا فعمرتني لمساعدة لمرحة أنني رحت أمرح حول الشجرة ، وحيما علمت

تلك هي بعض الأساليب التي تلقيت بها العلم من الحياة ومن الطبيعة ذاتها ، ففي أول الأمر كنت أبشر بمجموعة من احتمالات النجاح المحدودة ، وجاءت مصمتي الأسسة أن سوليفان لتتعهد تلك الاحتمالات برعايتها وتحولها إلى نجاحات محققة . فهي ولاشت الشخص الوحيد الذي تمكن من القفاد إلى أعماق نفسي وروحي ، وقد دأبت منذ وصولها عني أن تظهر لي انجمال امائل في كل شيء ، وسعت دانعاً إلى ملأ حياي بالحب والمرح والبهجة والهاء وحرصت على جعلها ذات معنى وهدف لكي أصبح - برغم هروفي إعافتي - مواطنة مهيبة لخدمتها لا عالة عليه !

\*\*\*\*

كانت أفصح الهدايا هي بطري هي عصمو الكاريا الذي أهدته لي معلمتي ، إذ كان هذا العصفور الصغير واسمه « تيم » - ألياً جداً حتى أنه كان يقف على رجلي ويأكل من راحة يدي وقد علمتني الآسة سوليفان كيف أعتني ببطري الأليف ، ففى كل صباح عقب الإفطار كنت أعد له حمامه وأطبخ قفصه وأرثه وأملأ مائه من أوعية بالحبوب الطازجة والماء النقي

وإذ صباح تركت قفص تيم على المقعد المجاور للمائدة وذهبت لإحضار بعض الماء لحمام الطائر ، وحينما عدت شعرت بقصة كبيرة تمرق إلى حاسي وتختك بي وأنا أفتح باب القفص وفى أول الأمر لم أتحقق مما حدث ، لكنى عندما صعب يدي دخل القفص ولم يجاوبى تيم بحركة أحسنه ولم تسارع قدمه الصميرتان إلى الإمساك بإصبعي ، عرفت أنى من ترى طائري لصغير المعرد الوديع مرة أخرى .

كان الحدث لهم التالى هي حياتى هو زيارتى إلى بوسطن فى مايو ١٨٨٨ ، إذ مارلت أذكر الاستعدادات التى قمت بها لذلك كما لو كانت جرت بالأمس فقط .

وأذكر رحبلى مع معلمتى والذتى ، ثم وصولنا فى نهاية المطاف إلى بوسطن كانت تلك الرحلة مختلفة كثيراً عن الرحلة

بوجود هدية نكل طفل شعرت بهرحه عامرة خصوصاً حينما علمت بأن أولئك الناس الطيبين الذين أعدوا الشجرة قد كلّفوني بتسليم الهدايا للأطفال . وفى عمرة مرورى بهذا الدور الذى أنيط بي لم أتوقف لأنظر إلى الهدايا التى حصصوها لى ، وحينما فرغت مما كلّفوني به كان شوقى لبداية حفل العيد يكاد يخرج عن إصار سيطرتى ، إذ علمت أن هذه الهدايا التى تلقيتها لم تكن هي الهدايا التى احتضت أصدقائى بأسرارها ، وأحسرتنى الآسة سوليفان أن الهدايا التى سوف أتلقيها ستكون أروع من التى تلقيتها قبل ذلك لكنى كنت قانعة مع ذلك بالهدايا التى تلقيتها من الشجرة ، وقررت أن أدع لآخرين حتى الصباح ثم أنظر ماذا سيقدمون لى .

وفى تلك الليلة وبعد أن علمت جوربى <sup>(١)</sup> ، بقيت ساهرة فى فراشى ، وكنت أنظأر باليوم . وفى آخر الأمر عسى اليوم وبين درعى عروسة جديدة ودب جديد ، وفى الصباح التالى كنت أنا التى أيقظت جميع أفراد الأسرة لأهئهم بالعيد ، فإذ بي أجد المصاحبات فى كل مكان : فى جوربى ، وعلى المصعدة ، وعلى الكراسى ، وعلى الباب .. حتى أنى لم أكن أستطيع السير دون أن ألتصق بى إحدى هدايا العيد الموضوعة داخل لفائف جميلة <sup>(٢)</sup> من عادة الأطفال فى بلاد الغرب أن يقوموا فى ليلة العيد بتعليق بعض الجوارب الطويلة إلى جوار فراشهم ، فيقوم الأبناء بوضع هدايا العيد بها .



نستحم . وكان هذا الأمر فوق احتمال عروستي المنكبة ، فعندما رأيتها بعد ذلك سم بكن ناسي أكثر من قصة من القطن غير محددة لمعان حتى لم يعد يوسعي أن أعرف عليها بولا وحوود اعبيس المصوغتين من الخمرتين اللتين كانتا تظوران إلى نظرة نم عن الحزن واليأس من الحياة

وحينما سم القطار آخر الأمر محطة بوسطن شعرت كما لو أن حملاً حميلاً قد خفق . وبمجرد وصولي إلى مؤسسة بركنر بمكبرمين بدأت أرتص بصداقات بكل الأطلال الصغار فاقتدي انصر ، وفرت كثيراً حين وحدهم على عنب يأجديه الأيدي ، إذ كان من دواعي سردي أن أتحدث إلى الأطفال بغير لغتي ، لأني حتى ذلك الوقت كنت أشدو كأنجسي بتحدث عن طريق مترجم ، أما الآن فقد أصبحت في بلدي وبين أهلي ومن هم في مثل صروفي . ومع ذلك مضي بغير الوقت قبل أن أحقق من أن أصدقائي نحدد مكفوفين ، فقد كنت مبركة لكوي أجمع بين فقد انصر . وفقد المقبرة على السمع ، لكنني بطريقة ما اعتقدت أنه مادام هؤلاء الأطفال قادرين على السمع ، فهم قادرون أيضاً على الرؤية . وسرعان ما اعتدت على قيام هؤلاء لأطفال بوضع أصابعهم على أصابعي ونحن تبادل الحديث باستخدام أحذية الأيدي ، وبعد أيام ثلاث شعرت بأني في بيتي تماماً . وكنت تطلع في شعف إلى حبره سارة في إثر أخرى كلما دارت الأيام

التي فمت بها قبل ذلك عامين إلى بلتي مور . وهذه المرة لم تكن تلك اخذوه الصغيرة المثلثة بالعصبية والقلق ، والتي كانت بحاجة إلى اهتمام وحماية كل ركاب القطار لكي تهدأ نفسها كما كان الحال في الماضي . بل جلست في هذه المرة في هدوء إلى جانب الآسة سوليفان ، أنصت باهتمام وضعف لكل ما تقوله لي عما كانت تراه من خلال نافذة القطار . بهر بيبيسي الرائع لحمال ، وحقوق القطن الشاسعة ، ولتلال والمبات ، وحشود الناس استعريفين في الصحب على المظلة والذين كانوا يلوحون بأيديهم في ودع صدقاتهم بلوحودين على متن القطار . وعني لمفقد المقابل لي جلس عروسي مصغرة من القماش «ناسي» وقد ردت هتافاً جديداً رفعة جديدة ، وراحت تظري بيبيبه . المصوغتين من حريري . وفي بعض الأحيان حينما كنت أنصرف عن الاهتمام بما كانت تصفه لي لآسة سوليفان ، كنت أذكر وحوود ناسي فأحدها بين دراغي . لكنني معصه الوقت كنت أحاول التعلب على شعوري بإهمالي بها بأن أجعل نفسي أعتقد أنها نائمة!

وقبل أن أتوقف عن حديثي هذا عن ناسي سود . أسرد عليكم تجربة حربية عانت منها صديقتي العروسة عقب وصولها إلى بوسطن ، ذلك أنها تسحت ، فقامت المرأة المختصة بعمل الملابس في مؤسسة «بركنر» التي كنا في ريارها بأحد ناسي سرأ تجعلها

سريعاً ، وصبر والفة من أنه لم يبق الكثير من العالم دون أن أراه ،  
فقد كنت أعتقد أن بوسطن هي بداية العام وأنها أيضاً منتهاه !

وقد كنا أثناء وجودنا في بوسطن بريد «سكرهيل» ، وهناك  
تلقيت أول دروس في علم لتاريخ حيث عرفت قصة الأبطال  
الشجعان الذين قاتلوا في نفس ذلك المكان الذي كنا نقيم  
فيه<sup>(٢)</sup> ، تلك القصة التي هزت مشاعري كثيراً . وقد صعدت  
لأعلى النصب التذكاري المقام من أجل نخلد ذكرى المعركة  
ورحت أعد درجات السلم وأسائل نفسي عما إذا كان الجود  
لذين حضروا القتال قد تسبقو هذه الدرجات لكي يعلقوا  
لرصاص على العود لقايح على الأرض الممتدة أسفل النصب<sup>(٣)</sup> !

ودهنا في اليوم التالي إلى «بلمونت» عن طريق البحر ،  
وكانت تلك رحلتي الأولى على مياه المحيط ، بل وازرة لأولى  
لتي أستعمل فيها بحرة . كانت الباحرة نصر بالحياة والحركة ،  
إلا أن هدير المحركات جعلني أشعر بأن الدنيا ترعد ، وبدأت أبكي

٢) معركة بل بنكر «أو بنكرهيل» Banker Hill معركة مهمة من معارك الثورة  
الأمريكية ضد الحكم البريطاني . وقد دارت المعركة يوم ١٧ برنية ١٧٧٥ على  
تل يقع مقابل تل بنكر في «تشارلستون» بالقرب من بوسطن . وفيها صمد  
القرار الأمريكيون في وجه هجمتي الجيش البريطاني ، ثم تراجعوا أمام الهجمة  
القائلة العيقة

٣) كانت هيلين وقت الزهرة مجرد طفلة ، ولم تنته إلى أن النصب التذكاري لم  
يكن موجوداً أثناء المعركة بل أتيم بعدها متجسداً لذكرائها !

لأنني اعتقدت أنه لن يكون باستطاعتنا التمتع بانزهة خارج المنزل  
كما كنا نخطط لذلك ١ . وأطسى في ذلك الوقت كنت أكثر  
اهتماماً بالصخرة الكبيرة التي رما عليها آلياء الرواد<sup>(٤)</sup> من أي  
شيء آخر في بليموث

لقد كان بوسطن أن المس تلك الصخرة وربما جعل هذا قصة  
مجيء أولئك الرواد والأعمال الباهرة التي قاموا بها تبدو أكثر واقعيه  
بالنسبة لي . فلطالما كنت أسكك يدي بمودجاً صغيراً لصخرة  
ببليموث أمدها بي رجل فاضل ، ومارلت أشعر بحلمس لأرقام  
1620 ، وأفكر في لفظة الطريقة الخاصة بأولئك الآياء الرواد

لقد كان آلياء الرواد في محيطتي الطفولية ، رجالاً شجعاناً  
وكرماء للعاية ، وقد أعجني فيهم سعيهم إلى وطن جديد في أرض  
عربية ، وامتت بأنهم كانوا يتطلعون إلى تحقيق حرية زملائهم في  
الإنسانيه إلى جانب حريتهم هم ، لكن أدهشني وأثار إعجابي بعد  
ذلك بعدة سنوات أن أعلم بأعمال الاضهاد التي اقترفها هؤلاء  
الآياء الرواد ، تلك الأعمال التي تحمّلنا بشعر بالحمل في الوقت

٤) الآياء الرواد Pilgrim Fathers هم أول مجموعة من الناس تستوطن أرض ما  
يسمى الآن بالولايات المتحدة الأمريكية ، وقد كانوا من الإنجليز المظتهدين  
دينياً لانتمائهم لعائلة السيويون «أي المظتهدين» وقد رست السفينة التي  
حملتهم واسمها «مايفلاور» Mayflower على صخرة بليموث بولاية  
ماساتشوسيتس عام ١٦٢٠ م

نفسه الذي لا يزال فيه عبر عن إعجابنا بشجاعته ومقدرة هؤلاء  
الناس الذين ورثنا عنهم بلادنا الجميلة .



السفينة (ماي فلاور May flower) التي حملت المستوطنين الأوائل للولايات المتحدة  
المعروفين باسم الآباء الرواد . تذكرتها هيلين وهي تزور صخرة بليموث Plymouth  
وهو ميناء طبيعي راسب عليه السفينة وأُنزلت الآباء الرواد عام ١٦٢٠

وقبيل أن تعلق مؤسسة بركر أبوابها في ذلك الصيف تمت  
الترتيبات من أجل أن أقضي أنا ومعلمتي عطلتنا في «بروسر»

الواقعة على «كيب كود»<sup>(٥)</sup> مع صديقتنا العربية مسر «هويكسر» ،  
وكنت مسرورة كثيراً لأنني سمعت الكثير من الأشياء الرائعة عن  
البحر ، وكانت تجاربى معي هي أفضل ما أتذكره عن ذلك  
الصيف . ركنت دائماً أعيش بعيداً عن المحيط ، ولم أنعم قط  
باستنشاق الهواء الممزوج برائحة الملح ، لكسي كنت قد قرأت  
وصفاً للمحيط في كتاب كبير عونه «عالمنا» ، فملأني ما قرأته  
بالدهشة وشعرت برغبة جارفة في أن أُنس البحر المائج وشعر بهدير  
أمواجه ، ومن ثم صرت في غاية الاستشارة ولشوق حين عدت  
أن هذا الحلم يوشك أن يتحقق .

وبمجرد أن رديت رداء السباحة انطبقت أجري على الرمل  
الدافئ ونفخر بي الماء البارد ، وشعرت بالأمواج العالية تتدفع في  
صعود وهبوط ، فملأت حركة الماء نفسي بالسرور لكن سعادتي  
لم تدبث أن تخولت إلى فرع ، فقد اصطدمت قدمي بصخرة  
وأعقب ذلك اندفاع الماء فوق رأسي ، فحاولت أن أجد شيئاً  
أتمسك به ، لكن لم يكن هناك شيء آخر سوى الماء والأعشاب  
البحرية التي راحت الأمواج تقذف بها في وجهي . فقدت كل  
مقدرة على مواجهة هذا الموقف ، وبذت الأمواج كما لو كانت

(٥) كيب كود Cape Cod (ومعنى الاسم رأس كود) عبارة عن شبه جزيرة في  
ولاية ماساتشوستس تقع على المحيط الأطلسي

تتلاعب بي وتتفادمني يسها . كان الموضع مربعاً للعباء ، وقد  
 برلقب الأرض الراسخة الآمنة من تحت أقدامي ، وبدأ لي كأنه  
 لا يوجد في العالم بأسره شيء سوى الماء . وفي نهاية المطاف بد أن  
 المحيط قد شتم من لعنته الحديدية ، فألقى بي ثانية نحو الشاطئ .  
 ولم تكذب لحظة إلا وكانت معلمتي تحتوي بين ذراعيها !  
 وكم كنت سعيدة حين تبدد حوفي وسيطرت على نفسي وألقيت  
 إلي معلمتي بأسؤال العجيب التالي : « من الذي وضع الملح في  
 الماء ؟ » .

وبعد أن التفت من تحزيتي الأولى الرهيبة مع الماء ، مضيت  
 أستمع بالحلوس على صحرة كبيرة وأنا برداء البحر ، بينما  
 للأمواج تلاطم الصخرة ويدفع منها لأعلى من حين لآخر رشاير  
 من الماء كدردشة يشار حولي وتعمري قطراته . وكنت أشعر  
 بالصخور الصغيرة على الشاطئ وهي تتحرك كلما ألفت الأمواج  
 أثقالها على الشاطئ . وبد الشاطئ بأسره - بل والهواء أيضاً -  
 كما لو كان يهتز ويتحرك بتأثير حركة الموج . وكان باستماعتي  
 أن أشعر بالأمواج وهي تتراجع لتستعد قفزة جديدة على الشاطئ  
 شديدة وأكثر رعباً من سابقتها . فرحت أتنبئ بالصخرة بكل ما  
 وتيت من قوة . وكان هجوم البحر على الشاطئ يشير شفهي

ويعتني ، لكنه في الوقت ذاته كان بشير فرعي وصطري

لم يكن يوسمي على الإطلاق أن أمكت بفسرة طويلة على  
 الشاطئ ، وإن كنت أعشق هواء البحر المليل المشبع برائحة الملح  
 وأعشق الأصداق والصخور الصغيرة والأعشاب البحرية وما بها من  
 مخلوقات صغيرة ، وكان كل ذلك ينير اهتمامي ويدهشي بدرجة  
 كبيرة . وفي ذات يوم جذبت الآسة سوليفان انتباهي إلى شيء  
 غريب وحدته في مياه الشاطئ لصحفة ، ولم يكن ذلك الشيء إلا  
 سرطاناً بحرياً (كابوريا أو أبو جلمو) من النوع المسمى «حذوة  
 حصان» . وهذا نوع محبوب من ذلك النوع «راه» على الإطلاق .  
 وقد أحدث ألتحسس يرمي تدور به فكرة أنه كائن غريب للعباء  
 لكونه يحمل بينه على ظهره ، وحظ لي فحذاء أنه ربما يصنع  
 كحيوان أليف هيف بمعاينة ، فأمسكت به من ذيله بكفا (١)  
 يدي وحملته إلى لبيت وأنا أشعر بسرور ضاع كوني سمكت من  
 لقيام بذلك ، إذ كان السرطان ثقيلاً وقد بدت كل مالدي من  
 قوة لكي أجرة مسافة ثمانمائة متر . وقد رحوب الآسة سوليفان أن  
 يصعه في وعاء مني بالماء في ماء اسرل وكنت على ثقة من أنه  
 سيقى أمناً هناك ، لكنني حين ذهبت في اليوم التالي لإلقاء نظرة  
 (١) أغلب الظن أنها أمسكت به من كلاته إلى ذرعه انقبضة ، لأن السرطان  
 البحري (أبو جلمو) ليس له ذيل

## الفصل الخامس

ففى

الحريف عدت إلى بيت أسرتى فى ولاية ألاباما بالحبوب وقللى منى بالدكرات السعده ، وحين أستعيد لأن ذكرى تلك الربارة إلى الشعال تندفع إلى دهمى العديد من التجارب لمعيدة التى تسو لى كما لو كانت بدايات كل الأشياء . فقد وصعب لك لرحلة عند قدمى كور عالم حديا جميل ، وفيها . أهذا لحظة من كانت حياى مدسة بالحركة بعمام كما لو كانت إحدى الحشرات لصنعة التى بعن كى حياتها خلال يوم واحد قصير . وفيها بعد التقيت بالكثيرين من الناس الذين مصو يتحدثون إلى بالنهجي على أصابعى ، وكانت تجربة حديده رائعه أن تصك من بياض الأفكار مع مثل هذا العدد الكبير من لناس ذوي المشارب مختلفه

وقصبت شهر الحريف مع أسرتى فى مرسا الصيفى ، الواقع على جبل يعلو ٢١ كيلو متراً من نوسكومبيا .

وهذا المنزل يسمى «مخجر سراحس» ، نظراً لوجود محجر قديم للحجر الجيري بالقرب منه . وعبر المحجر كانت تجرى ثلاثة جداول مياه صغيرة تندفع فوق الصخر التى بدت كما لو كانت

عليه وحده احتفى دون أن يدرى أحد كيف هرب أو أين ذهب! . وشمرت لغورى بحية أمل مريرة ، لكنى تحققت بعد ذلك أنه أمر يتنافى مع لحكمة ومقتضيات الرحمة أن أجعل مثل هذا المخلوق المسكين يعيش بعيداً عن ماء البحر الذى هو موطنه الطبيعي! وبعد برهة من الوقت شعرت بالسعادة حين خطر بياى احتمال أن يكون ذلك السرطان قد عاد إلى مياه الشاطئ مرة أخرى

\*\*\*\*



تحول اعتراض مجرها ، وكانت بانث السرحس<sup>(١)</sup> نمو في كل أنحاء المحجر على نحو جعلها تعطى كتل المحجر الجوى ، بن كانت في بعض الأماكن تعطى حتى حدلول الماء الصعيرة . أما باقي اجبل فكانت تعطيه الأشجار ، بما في ذلك أشجار السديين (البذرة) الصخمة ، وأشجار الصوبر الرائعة منظر . وكانت بعض تلك لأشجار معصاة بدورها بأشجار الكروم ، وفي بعض الأماكن كانت أشجار الكروم تمتد بين الأشجار الكبيرة من واحدة لأخرى ، وتختصر بينها فراغات مأهولة دائماً بالمرشات وأنواع أخرى من الحشرات كما كانت هناك أيضاً أشجار لهاكهة اسي شجر عبيراً فواحاً في أنحاء تلك لعانات وكما فصل القيم بالسرحد في فترات ما بعد العصر ، ففي ذلك الوقت كانت تنصوح لروائح الزكية المساعدة من الأرض آخر كل بهار .

وكان مرساً مجرد مسكن بسيط مبني في موقع رائع فوق قمة لحسن بين أشجار السديان والصوبر ، وعرفه الصميرة مصطفة على جسي ردهة طويلة مفتوحة ، وتخطيط به من جميع الاتجاهات شرفة مسطوفة منسعة كانت مهب عليها دائماً انرياح الجببية المحملة بأريج العذبات الركي . وكما يقصى معظم أوقاتنا في الشرفة ، حيث نعمل وبأكل ونلعب . وبالقرب من الباب لحلمى تمت

(١) نباتات السرحس (أو السرحس) Ferns نباتات عديدة الأبرار والبذور ، وشكلها يلائم وجبات شبيهة بالجراليم تسمى (الأبوع)

شجرة ضخمة بنيت حولها درجات سلم الباب ، وكانت الأشجار النامنة عند الشرفة الأمامية قريبة للعناية منها إلى حد كان يمكن من أن ألسها وأن أشعر بالرياح وهي نهر أعصابها ، وأشعر كذلك بتساخط أوراقها في فصل الحريف .

كان الكثير من الزوار يأتون إلى معجر السراحس ، وكان الرجال يقسمون عادة محيماً ويتحلفون في الأمسيات حول نار الخميم حيث يأحدون في اللعب المباح وسرد الحكايات الطريقة عن تخاربهم وحبراتهم في قصص الطيور والحيوانات وصيد السمك واقتناء آثار الظء عمر العاية . وحس كنت أستمع إلى تلك القصص<sup>(٢)</sup> كان يسير عني لاعتقاد بأنه حتى الأسود<sup>(٣)</sup> والذبية لم يكن يوسعها إلا فلات من أذى هؤلاء الصيادين الجابرة . وحس كانت جماعة لأصدقاء المرحين تنفص بيلاً . كانت الكلمات الأخيرة لمتياداة يسهم عادة تدور حول حططهم

(٢) الاستماع هذا مجارى ، فهليل تستمع عن طريق الجدية الأبدية . ولابد من وجود شخص آخر يستمع وينقل إلى هليل ما يسمعه عن طريق تلك الأبدية !

(٣) في الأمريكتين لا توجد الأسود العادية المعروفة في أفريقيا وآسيا . بل يوجد نوع من حيوانات الفصيلة القطبية يسمى الكوجر Cougar أو البوما Puma أو أسد الجبل Mountain lion وهو حيوان مفترس شديد الهس ويشبه في مظهره البومة لكنه أصغر حجماً . وإن كانت هليل تذكر الأسود والذبية عن ميل التهكم على هؤلاء الزوار الميالين إلى المغالاة برغم عدم خبرتهم بالصيد .

ليصيد في اليوم التالي وكان برحان يمامون في الردهة الواقعة خارج بيتنا على أسرة كانت توضع بها حصيصاً من أحلامهم حين يقدمون ببريدنا ، وكان بمقدوري أن أشعر بعضيتهم لصياديين وبزمنجرة كلابهم

وعدت في تلك الفترة أن أصحو في الفجر على رائحة القهوة وعلى أصوات أقدام الرجال حين يروحون ويحيثون وهم يصوبون أنفسهم بحظ عظيم في موسم الصيد . وكان يوسمى نصاً الشعر برفع حد من الخيول التي كان الرجال يركبونها في رحلتهم من اندسه . . . ضدها تحب لأسفار غيرة خيل ، ومن الشرف أن أحسن منها مثل صيادين كانت سمعيل الذهاب في رحلة الصيد . . . في هذه الساعات كان كل شيء يصيح مهيباً للرحلة ، لبعاد صيادون يركبون يبادروا النكاح وهم يوحون بأيديهم في مرجح سما كلابه الصيد تركض أمامهم جلدلة مسرورة .

وفي الصباح أبكر ك بعد الشواء في الهواء الطلق ، إذ كان لخدم يوفدون باراً في دغ حصره عميقة في الأرض ، ويصبون عمدة خشبية حول فوهة الحفرة ، ويعلقون اللحم بين تلك لأعمده وبأحدون في إدارته حول محوره ينصح . وكانت رائحة اللحم المنشوي لسهية التي تنصوع في محجر السرحس تخملي شمر بالجوع قل تجهيز المائدة بفترة طويلة

وفي خصم تلك لأحداث المثيرة كان الصيادون يهودون وقد بدا الإرهاق عليهم وعلى خيولهم وكلابهم من فرط المشقة ووقدة الحرق ، وأرسمت على قسماهم مشاعر الإحباط الناجمة عن عجزهم عن صيد طيب واحد . والطريف أن كل رجل منهم كان يقول إنه رأى طيباً واحداً على الأقل ، وأن الحيوان قد اقترب منه بغاية . . . ومع ذلك فليس من بينهم واحد صادفه حظ طيب في الصيد ! إلا أنهم سرعان ما كانوا ينسبون إختفاقهم حينما تخلص معاً جميعاً للأكل وحة لذيذة من اللحم المنشوي الذي لم يصدوه

وفي أحد شهور الصيف كان لدى في محجر السرحس حصان كنت أطلق عليه اسم بلاك بيتوني (الحصان الأسود) ، وذلك لأنني كنت قد فرغت لتوي جيداك من قراءة القصة الشهيرة عن حصان الذي يحمل هذا الاسم . وكان حصاني يبدو شبيهاً بحصان القصة ، إذ كان جسمه مغطى بشعر أسود لامع وعرة بيضاء (١) على جبهته . وقد قصبت الكثير من أسعد أوقات حياتي على صهوة ذلك الحصان ، وقد اعتادت معلمتي أن تقوده أنا أعتلى صهونه ، لكنها في الأوقات التي كان فيها الحصان يبدو هادئاً وما كانت تلقى بالحل ونسركي أقوده دون تدخل منها ، وعندئذ كان يذهب حيثما شاء وقد يتوقف أحياناً بكل مرة . المرة مساحة بيضاء في جبهة بعض الخيل . وهي من السمات الغريبة في مظهر الحصان .

بعض الأعشاب أو أوراق الشجر .

وفي أوقات الصباح حين لا تكون مهمة بالركوب ، كنت أشعر أن معلمتي بعد الإفطار في السير إلى العباة لتجول ها وهناك دون أن يلتزم بالنسر في طريق معين سوى الممرات التي كانت الأبقار والحجول تصنعها بين الأعشاب ولشجيرات وفي بعض الأماكن كانت تكثر نباتات الكروم والشجيرات إلى حد أننا كنا نستطيع السير خلالها ، بل نصف حولها .. وكنا دائماً نعود إلى لكح وأبدت مليحة بكل أنواع الأزهار والسراخس البرية الجميلة .

وفي بعض الأحيان كنت أذهب مع أختي لصغيرة « ملدريد » أبناء عمومتى الصغار لجمع العاكة البرية ، والغريب أنني لم أكن أكل تلك العاكة بل كنت أشارك في هذا العمل بدافع من حبى لرائحتها واستمتاعى بالبحث عنها بين الأوراق والأعشاب وكنا أيضاً نبحث عن الحور ( عين الجمال ) ، واعتدت على معاونة لأصقال في كسر قشوره ليمس لهم لاستمتاع بأكل ثماره الحلوة الكبيرة

وكان هناك في سفح الجبل حط للسكك الحديدية ، مما جعل الأصفال يولعون بمشاهدة القطارات وهي تروح وتجيء .. وفي بعض الأحيان كانت القطارات تعلق صغيراً عالماً يجعل كل أفراد

أسرة يهرعون إلى الشقة الأمامية ، وكانت شقيقتى ملدريد تقول لي في بعض الأحيان إن بقرة - أو حصاناً - قد صدمها القطار . كان يعد عنا بحوالى كيلو متر ونصف جسر ( كوبرى ) للسكك الحديدية يحتد عن راد صيق عميق ، وكان من الصعب للغاية أن يسير عليه أحد لأن الألواح المكونة له كانت متباعدة عن بعضها كثيراً ، كما كانت ضيقة للغاية لدرجة أن السائق عليها يشعر بأنه يسير فوق سكاكين . ولم أحاول أبداً أن أعبر هذا الجسر حتى جاء يوم اضطررنا فيه لتقييم معامرة حقيقية ، وبفواصل ذلك أنا - أن وملدريد والأسرة سويش - كما سير في الغابات فوجدنا يصل طريقنا .. ومكثت بصرب في أرض العباءة هنا وهناك طوال عدة ساعات دون أن نجد ما نرى معد ، ومجأة صاحت ملدريد « ها هو جسر السكك الحديدية هناك ! » ، ولانث في ما كنا بفصل السير في أى طريق آخر إلا صرقت الحسرة لولا أن الوقت كان متأخراً والظلام أخذ في الزحف بسرعة ، مما جعلنا نختار طريق الجسر لأنه طريق مختصر يوصلنا إلى المنزل مباشرة ورحب أختي القصبان بأصبعي دون أن تشعر بالحرف ، ومصبت أنقدم بسرعة طيبة إلى أن سمعنا فجأة صوصاء حافنة مصدر من على مسافة بعيدة ، وصاحبت ملدريد « إيسى أرى القطار .. » وكان من الممكن في ذلك الوقت أن يدهما القطار خلال دفيقه واحدة . لولا أن سارع بالهبوط على الأعمدة الخشبية إلى أسفل الجسر

ووقفنا على دعامة السفلى التي كانت القصبان يستند إليها ،  
والأمر المفرغ أنى شعرت بالبحار الساحن المبتثق من القاطرة بلعج  
وجهي بسما القطار بحر فوق رؤوسنا ، وقد جعلنا الدخان والرماد  
لا نستطيع الشمس وكاد يخفق ! وضاعف من مشاعر مرعنا  
اهترار الجمر بشدة أثناء مرور القطار حتى تخول لى أننا جميعاً  
سوف يسقط في الوادى وترتطم رؤوسنا بالصخور ، لكن ما أن مر  
القطار حتى عدنا تسلي صاعدين لأعلى الجسر . وكان ذلك  
عملاً شاماً ، نكسنا أدبناه سجاج . وحسبنا وصلنا سلمين إلى  
الكوخ بعد حلول الطلام وحده خالياً من كل من فيه . بالأسرة  
بجميع أفرادها قد انطبقت نباح عا هي كل أرحاء المنطقه !

بعد ريارنى الأولى 'يوسطن كنت أقصى كل شتاء فى الشمال،  
وقد ذهبت ذات مرة لزياره قرية فى إقليم «بيو نجلده» الذى كانت  
بحيراته متجمدة فى ذلك الوقت وحفوله الشاحة منطاة بالثدج .  
وقد أدهشنى أن أحد كل الأوراق قد سقطت من على الأشجار  
والشجيرات ، وأحد الطيور قد هاجرت بعيداً تاركة أعشاشها  
الناوية المليئة بالثنج . وفى ذلك الوقت كان الجو يبقى على حاله  
من شدة البرد حتى حيسما تسطع الشمس ، وكانت المروح  
والأحراش المليئة بالأعشاب والشجيرات تتحول عادة إلى عاية من  
العجيد .

ودات يوم أخرتنى الأنسة سوليفان أن عاصفة شجية فى طريقها  
إليتنا . ومن ثم هرعنا إلى خارج البيت لرى وشعر بأولى رقائق  
الثلج وهى تهبط على الأرض ، وظل الثلج على مر الساعات  
يتساقط فى سكون وحقة ، حتى أصبح الإقليم أكثر استواء .  
وكان الثلج لايزال يتساقط حينما نعيم الليل . وأخبرتنى معلنى  
أن كل الفرق قد احتفت ، وأن العالم بأسره بدا كما لو كان  
حقلاً واحداً معطى بالثلج وبدب الأشجار كما لو كانت مرشوفة  
فيه .

وفى المساء أحدثت نهب ريح قوية ، فجلسنا حول المدفأة ومضينا  
بروى القصص ، وعسا لشعور بالسعادة إلى حد جعلنا نسى أننا  
سنت لهذا العلم حصلة . وبعد ذلك اشتد هبوب لريح كثيراً إلى  
حد جعل الكوخ يهتز بشدة ، إلى حد شعرت معه بفروع الأشجار  
وهى تضرب المواقف بعنف .

وفى اليوم الثالث من هبوب لعاصفة الشجية توقف هطول  
الثلج ، وبعدت أشعة الشمس من حلال السحب لسمع على سهل  
أبيض شاسع .. وراح الناس يحفرون درواً صيقة خلال الثلج ، أما  
أنا فقد ارتديت معطى وحرج ، وكان الهواء بارداً إلى حد  
جعل لسعة البرد تسفع الوجوه . وقد نجمنا فى الوصول إلى بعض  
أشجار الصوير المامية خارج حقل يقع بالقرب من المنزل ، وبدت

## الفصل السادس

في

شتاء عام ١٨٩٠ تعلمت الكلام ، وحققت بذلك  
لأمية التي كبت أنوف دوماً إلى تحقيقها وقد  
لارمتني حينذاك عادة إصدار بعض الصرخاء وأنا أضج إحدى  
يدى على حجرني بسما البد الأخرى تتحسر حركة شغني  
وكان لي شيء من شئنه إحداث الصرخاء كفيلاً بإسعدي .  
فكنت مثلاً أحب أن أشعر بحرارة الفطة <sup>(١)</sup> ونباح الكلب .  
وأحرص على إبقاء يدي على حجرة من يقوم بالحديث ، وكب  
قل أن أفقد بصري وسمعي قد بدأت في تعلم الكلام ، لكني  
بعد أن أصابني المرض توقفت عن الحديث لأنه لم يكن يوسعي  
أن أسمع ما يقوله الآخرون وقد اعتدت وقتها على البقاء بين  
دراعي أمي طوال اليوم واصصة يدي على وجهها لأن شعوري  
بحركات شفيتها كان يسعدي ويمليني . والعرب أني كنت  
أحرك شفتي أيضاً بالرغم من سبابي التام في ذلك الوقت ما هو  
الكلام ؟! ويدكر أصدقائي أنني كنت أصحك وأبكي بصورة  
طبيعية ، وأني ظلت لبعض الوقت أصدر الكثير من الأصوات  
وأصو بعض الكلمات حتى لو لم أكن حينذاك أعرف ماذا يعني

(١) صوت خلال انواء تصدره الفطة ، وهو يشبه عطية التائم

لأشجار مراكمة ومكسوة بردء أبيض من الثلج ، وخلال الجو من  
عقبه اعتاد برائحة الصوبر . وكنت حين آنحس لأشجار أشعر  
بذوق الثلج وهي تتناقص من عليها وتتناثر في الهواء ، كما كان  
انعكاس ضوء الشمس على الثلج وهاجاً إلى حد كنت معه أرى  
وميض البياض الناصع <sup>(٢)</sup> .

وبمرور أيام أدابت الشمس حرة من الثلج ، لكنه قبل أن  
يذوب تماماً جلبنا عاصفة جليدية أخرى . إذ لم أكد أنصر  
بالأرض ثالثة تحت قدمي مرة واحدة طول ذلك الشتاء . وأحيانا  
كانت لأشجار بعد عطاءها لجليدي هذا ، أما الحيرة فقد ظلت  
على حالتها من التجمد والصلابة .

وبان ذلك الشتاء كانت مسئلاًنا الوحيدة للزلج على  
المحدرات الجليدية ، وكما يفعل ذلك على السو حل للمحيرة  
للخيرات ، حيث كان أحد الأولاد يقوم بدفع رلاحتنا سده عند  
أعنى اسحدر فتتعلق بنا بعيداً في اتجاه أسفل الشل وتعتبر سطح  
الحيرة المتجمدة . ما روع ذلك ، لقد كنت أحبه جداً حملاً !  
إذ كنت أشعر حين تنطق الرلاجة كأن السلاسل التي تقيدني إلى  
الأرض قد كسرت وأني صرت حرة كالسم

(٢) في هذه المرة لم تكن الرؤية مجازية ، بل كانت هيلي كبير ترى فعلاً بياض  
الثلج الناصع الوهاج عن طريق بقميه صميطة من النظر . ويجب أن نتذكر أن  
بأسطعنا رؤية الضوء الساطع حتى ونحن نغمض أعيننا



لكن أهم ما في ذلك الأمر أني يقبب بالفعل أذكر معنى كلمة وحدة هي Water (ماء) ، إلا أن طريقة نطقى لهذه الكلمة صارت - في الوقت الذي جاءت فيه الآتية سوليقد لتعلمنى - عسيرة المهم على الآخرين ، وقد توقعت عن استخدامها حينما تعلمت نهجى الكلمات بأصابعى

عرفت منذ وقت بعيد أن الناس من حولى يكلمون بعضهم البعض .. وأن حتى من قبل أن أعرف أنه من الممكن للأطفال الأصم أن يتعلم الكلام ، لم أكن قابعة بالاكشفاء باستخدام أبجدية الأيدي ، فالأشخاص الذين يعتمدون كية على تلك الأبجدية يشعرون عادة بالنقص والنصيب لعدم محكمهم من التواصل مع الآخرين إلا بهذه الطريقة . وكانت نتيجى دائماً الرعية فى الحديث إلى الغير ، وكنت أحاول استخدام صونى وضعتى حتى برعم أن الآخرين كانوا يشعرون خوفاً من ألا تسفر المحاولة إلا عن شعورى بحمية الأمل . لكنى سمعت ولحسن الحظ - عن طريق مصادفة سعيدة - بأخبار فتاة أخرى كيفية صماء تعلمت الكلام الأمر الذى أحيأ فى الأمل أكثر وأكثر

وفى عام ١٨٩٠ جاءت معلمة الكلام «مسر لاسرود» لثرائى بمجرد عودتها من زيارة قامت بها للبروج والسويد ، ومكنت تخدشنى عن الفتاة الكفيفة الصماء التى علمها الكلام فى تلك

احلاد . وأثار منى حديثها عن تلك لفتاة امريد والمريد من الشوق إلى تعلم الكلام ، وحزمت أمرى على تحقيق هذا الهدف العزيز المال وقررت ألا أتقاعس دونه . ولم أقتنع حتى صبحتنى الآسة سوليغان لاستشارة الآسة «سارة فوللر» وطلب العون منها ، وكانت تلك السيدة معلمة للكلام ومديرة مدرسة «هورس مان» لنصم فى مدينة بومطن بولاية ماساتشوسس . وقد عرصت هذه السيدة الرائعة حفيقة الطل أن تعلمنى بنفسها . وشرعت بالفعل فى تعلم الكلام على يديها يوم ٢٦ مارس عام ١٨٩٠

تتلخص الصبره التى اتبعتها الآسة فوللر فى تعليمى الكلام فيما يبنى . كانت تمرر يدي بخفة على وجهها وتجعلنى أتحسس وصح لسانها وضعتيها كنما أصدرت صوتاً . ورحت أحاول بكل شوق أن أفعل كل شىء بمصر الطريقة التى تفعله بها ، وفى ساعة وحدة تعلمت ستة أصوات هى م ، ب ، أ ، س ، ت ، ي . وبلغ عدد الدروس التى نسقتها على يد الآسة فوللر أحد عشر درساً ، ولن أنسى ماحييت الدهشة وانسروز اللتين شعرت بهما حينما نطقت بأول جملة كاملة ومتصلة «الجو دق» *it is warm* . لم تكن كلمائى واضحة بلعابة أو سهنة الفهم ، لكنها كانت كلاماً بشرياً على أية حال !

لا يوجد طفل أصم يمكنه أن ينسى السعادة التى يشعر بها أو

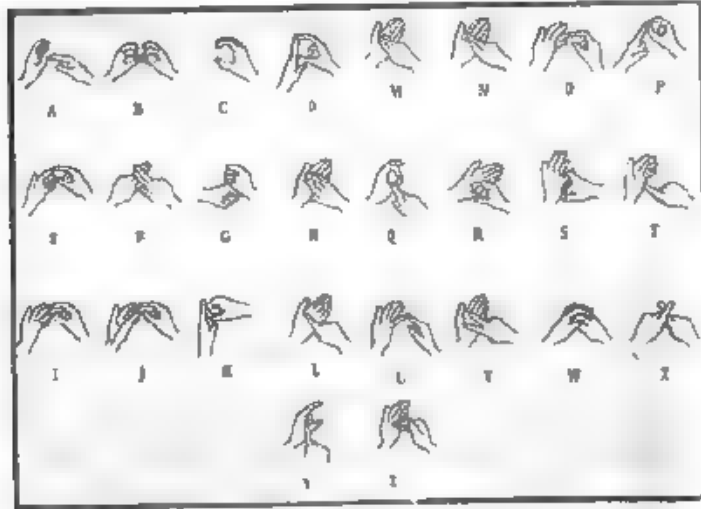
يسى بحساسة باكتشاف عالم جديد حينما يطلو بكلمته الأولى ،  
واعتقد أنه لا أحد سوى انصاب بالصمم يمكنه أن يتفهم حقيقة  
وأبعاد اشعاع الشد يد الذى كان يدعنى لتحدث بى كل شئ  
إلى لى ، إلى الأحجار ، إلى الأشجار ، إلى الطيور  
والحيوانات ' وكم كنت فرحتى عظيمة حينما كانت أحنى  
مدريد نيبى بدائى حين أناديهما ، أو حين كانت لكلاط تطيع  
مرأ أصدرته إليها لقد 'حست' بأنى حرة بدرجة أكبر وأسى  
فدرة أكثر على التصر عن أفكاري حينما يمكنت أحيراً من  
التعبير الصوتى بالتحدث إلى جانب مقدرنى فى التعبير المتحركى  
بالجنية الأبدى

ومع ذلك تشعر عيشة بى عربرى القارىء ألا تتصور أسى  
مكنك حقاً من الكلام خلال فترة رمية قصيره ، وفى البداية  
عرفت فقط مبادئ الحديث وكان بمقدور كل من الآسة فولر  
والآسة سوليفان أن يفهما ما أعنيه ، أما سائر الناس فلم يكن  
بمقدورهم أن يفهموا واحداً من الكلمات التى نتحدث بها .  
وبعد أن فرغت من تلقى دروس الآسة فولر كنت مأزول بحاجة  
إلى قدر كبير من العون ، ولولا معلومات الآسة سوليفان وحجها  
وسعة صدرها وجهودها المتواصلة لما كان بوسعى التقدم وتحقيق  
النجاح فى تعلم الكلام بصورة صعبة مثل سائر البشر . وكننت

لفترة طويلة أتدرب يلاً ونهاراً على الحديث قبل أن يتمكن حتى  
أقرب أصدقائى من فهم ما أقوله ، ومن جهة أخرى كنت بحاجة  
إلى عود الآسة سوليفان لإرشادها طوال الوقت وأنا أبدأ لجهد  
الجهيد من أجل التعود على التفق بالطريقة الصحيحة ومن أجل  
المناعمة بين الأصوات بالأساليب المختلفة التى اعتادها البشر بل  
إنه حتى بعد مرور عدة سنوات من تعلمى الحديث ، كانت الآسة  
سوليفان لا ترون نصف تنبهاى إلى بعض لأخطاء التى كنت فاع  
فيها فى تعلق بعض الكلمات ا

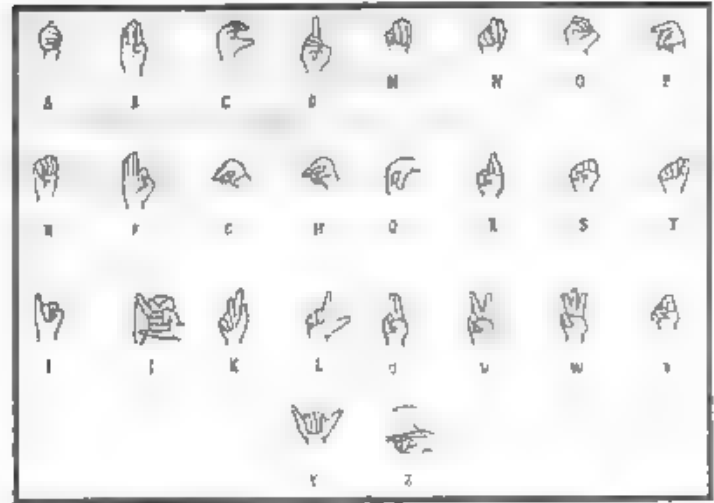
لاشت فى أن كل معلمى الأطفال الصم يعرفون معنى ما قلته ،  
ويمكنهم بسهولة فهم الصعوبات التى وجهتنى ، فحين كنت  
أقرأ معنى معلمى كتب أعتمد كلية على أصابعى ، إذ كان  
يتعين عى أن أستخدم حاسة اللمس فى التعرف على هتارات  
الحجرة ، وحركات نعم ، وتفسير فسمات الوجه . وكننت فى  
أغلب الأحوال أخطئ فى حساسى ، وكان يتعين على أن أكرر  
بعض الكلمات أو الجمل على مدى عدة ساعات حتى أتوصل  
إلى إدراك لصوت الصحيح والإحساس به حين أطلق به وقد  
تدربت وتدربت وتدربت وفى بعض الأحيان كنت أنهار تحت  
وطأة الشعور بالإرهاق والإحباط لكنى سرعان ما كنت أستعيد  
شجاعتنى وأتثبت بطموحى ، خصوصاً حين يطوف بحيالى كم

والإحياء يتبدد كلما فكرت في السرور الذي يمكن أن يجلبه إلى قلبي الحديث إلى أمي وقراءة إجاباتها من على شفتيها وقد أدهشني أن أجد أنه من الأسهل كثيراً أن أتحدث بما يدور في خاطري عن أن أتجهز بأصبعي ومن ثم توقفت عن استخدام أجدية الأيدي كوسيلة للحديث إلى الآخرين ، لكن لأسفة سوليفان وبعض أصدقائي واصلوا استخدامها في حديثهم إلى لأن أجدية الأيدي كانت الوسيلة الأسهل والأسرع من قراءة الشفاه في توصيل ما يرغبون قوله لي



أجدية الأيدي البريطانية

ستكون أسرتي محبوبة بإيجارتي ومن ثم كنت أستمع عزت جديد وأمصى بقوة في محاولاتي وأواصل بذل الجهد .



أجدية الأيدي الأمريكية

أوصاع وحركات تخطها الأصابع وقبضة اليد بعرض تيشل حروف الهجاء من أجل الصم اليكم وقد ظلت هذه الأجدية - لسنوات طوال وسيلة هليون كبار الوحدة في الاتصال باللس من حولها واتوصل معهم

اعتدت في تلك الفترة أن أقول لفسى « سوف تمهم شقيقتي الصغيرة ما أقوله لها » ، وكانت تلك الفكرة الملحة أقوى من كل الصعوبات التي تعترضني ، وكنت أقول لفسى دائماً في سرور « الآن يمكنني الحديث كبقية البشر » كما كان الشعور بالحزن

لعله من الأفضل أن أشرح كيف استخدمنا لأبجدية الأيدي ،  
 ذلك الأمر الذي يحير أولئك الذين لا يعرفوننا عن قرب ، فالشخص  
 الذي يقرأ لي أو يتحدث إليّ يتهجى الكلمات بيده عن طريق تلك  
 الأبجدية اليدوية التي يستخدمها عادة فاقدو السمع ، وكنت أصعب  
 يدي على يد من يتحدث إليّ في حفة ويدي مرتحية لكي يستطيع  
 المتحدث تخريكها كيفما شاء . ومن المعروف أن الوضعية التي  
 تمسكها اليد يسهل الشعور به بنفس القدر الذي تسهل به رؤيته ،  
 ولا يستغرق من الشعور بالحروف الواحد وقتاً أكثر من القدر الذي  
 يستغرقه أب ياعزيري لقارئ في رؤية الحرف الواحد لمطووع  
 حينما نقرأ ، وكذا بعض تصدقاتي يتهجون الكلمات بسرعة  
 كسرهم بعدد السرعة التي يكتب بها شخص خبير في الكتابة على  
 لالة الكتابة ، بدرجة أب عملية «التهجي» في حد ذاتها تصبح غير  
 ممنومة إلا بقدر ما هي عليه هي عملية الكتابة <sup>(٢)</sup>

وحينما تعلمت الكلام علمني الشوق للعودة إلى منزل الأسرة ،  
 ولم يكن توسعي الانتظار وأحيراً بدؤ الرحلة ، ورحلت أثناء  
 وجودنا في القطار أكثر من الحديث إلى الآنسة سويشان بقدر ما  
 أستطيع تدفعني إلى ذلك الرغبة في الاستعداد من كل دقيقة في

(٢) تعني هيلين بذلك أن التهجي على الأصابع يكون سريعاً جداً لدرجة أنها تشعر  
 بالكلمات والعبارات أكثر مما تشعر بالحروف . تماماً كما نقرأ بعض الكلمات  
 فنذكرها بسرعة ولا نكاد نشبه إلى الحروف لمكوبة لها

تحسين مقدرتي على الكلام قبل أن ألتقي بأسرتي وأحيراً وقبل  
 أن أعلم بذلك توقفت القطار في محطة نوسكومبيا ، وهناك وجدت  
 كل أسرتي محتشدة للترحيب بنا . ولأن تدمع عيناى حينما  
 تذكر كيف احتضنتني أمي في صمت والسرور بملأ جوانحها  
 وهي تستمع بكل كلمة أفونها ، وكيف أمسكت الصغيرة مددي  
 يدي وراحت ثقلها وهي متهجة . وكيف عبر والدي عن فرحه  
 ، فخره بالصمت والهدوء التام . لقد كانت لحظة خالدة في  
 حياتي !

\*\*\*\*\*



## الفصل السابع

في

نشأ عام ١٨٩٢ وقع لي - وأنا لأزال بعد صفحة صغيرة - أمر حزين كدر صفو حياتي وبدد السرور الذي كان قسي عامراً به . وقد جعلني ذلك الأمر ولقنرة طويلة بلعابة أعيش في صحبة الشك والقلق والحوف ، لدرجة أن أكتب دائماً فقدت سحرها بالنسيب - وحتى اليوم مارلت ذكرى تلك الأيام تخمسي أشعر بالنعاسة ! وأصل تلك الأزمة أنني كتبت ذات مرة قصة صغيرة بعنوان «ملك الصقيع» وأرسلتها إلى «لمستر أناجوس» مدير مؤسسة بركر للمكفوفين ، ومن هذا الحدث البسيط انبثقت كل المتاعب التي عصفت بحياتي بكل عنف !

كسبت تلك القصة وأنا لا أزال في بيتنا في الحريف الثاني لذلك الحريف الذي تعلمت فيه الكلام ، وكنا في ذلك الوقت قد مكثت في محجر السرخس لعنرة أطول من المعتاد . وأثناء وجودنا هناك راحت الأسة سوليڤان نصف لي روعة وجمال أوراق الخريف ، ولأنك في أن وصفها قد جعلني أتذكر أحداث قصة قد قامو بقرءتها لي قبل ذلك سنوات ، دون أن أكون وعية بذكرى تلك القصة . ومن ثم فقد حلت ورحلت أكتب في ومع وحماس قصة تدور حول ما وصفته لي الأسة سوليڤان ،

واعتقدت وقتها أنني لا أكتب سوى أفكارى الخاصة ، وكانت تلك الأفكار تتدفق وراء بعضها في يسر وسلاسة مما جعلني أشعر بسرور بالغ وأنا أكتب ذلك الموضوع . وكانت الكلمات تنحى إلى ذهني بسرعة وسهولة ، وكنت أفكر في حمله في إثر الأخرى وأسارع بكتابتها بطريقة يرايل .

وحينما اكتملت القصة ، قرأتها لمعلمتي ، ومازت حتى يوماً هذا أتذكر ذلك السرور الذي عمر مشاعري وأنا أقرأ أصل ما كتبت من فقرات ، وأتذكر أيضاً كيف كنت لا أنوي على التعبير كلما قاطعتني معلمتي لتصح لي تحق إحدى الكلمات وأثناء تناول الطعام العداء راحت لآسة سوليڤان تقرأ القصة لكل أفراد الأسرة الذين أدهشهم تمكني من الكتابة بهذه السراعة ، وقد سألتني أحدهم عما إذا كنت قد قرأتها في كتاب فأدهشني هذا السؤال كثيراً ، لكوني لا أذكر أن أحداً قرأه لي . وقد أحبته «لا لا إلهيا قصتي وقد كتبتها حصيصاً من أجل صديقي لمستر أناجوس» .

وفي نهاية المطاف أعددت نسخاً من القصة وأرسلتها للمستر أناجوس بمناسبة عيد ميلاده . وقد غيرت العنوان من «أوراق الحريف» إلى «ملك الصقيع» ، وحملت القصة القصيرة إلى مكتب البريد بنفسى وأنا أسهر بحفه كما لو كنت أسير على

الهواء ، وبه أكن في ذلك الوقت أعرف مقدار التعاسة التي  
ستصيبني مستقبلاً من وراء هدية عيد الميلاد تلك

شعر المستر أوجوس بالسرور حينما تلقي قصة «ملك  
الصقيع» ، وعهد إلى بشرها في أحد التماثيل التي تصدرها مؤسسة  
بركر ، «كان هذا مسلياً في بلوعي قمة المعادة لكن بمجرد  
دعوتني إلى بوسطن ، اكتشف البعض أن قصة أخرى ثمانية لفصة  
«ملك الصقيع» كانت قد نشرت قبل مولدي وأن مؤلفتها الأسة  
«مارجريت ث كسي» وصمت بها عروناً هو «جيت الصقيع» ،  
وأنها صهرت ضمن كتاب بعنوان «بردى وأصدقاؤه» وكتاب  
القصة منشأهين بدرجة كبيرة من حيث الأفكار وأسلوب  
التعبير ، بي حد أنه كان من الواضح أن أحداً قرأ في قصة الآسة  
كسي ، وأن قصتي كانت مجرد «قصاص» وكان من الصعب  
بمهمي بهد الأمر ، لكن حينما فهمته في النهاية شعرت  
بالدهشة وبالحزن ولا يوجد صغر آخر تخزع من كنأس المارة  
بالقدر لدى نخرعت به ، لأن ناس عتقدوا أنني عبر أمينة ،  
كما تشككوا في معلمتي وهي أناس آخرين ممن كانوا على صلة  
بي ومن كتب أحبهم حباً جماً .. ولم يكن باستطاعتي أن أفهم  
كيف يمكن أن يحدث شيء كهذا ، وحاولت مراراً وتكراراً أن  
أذكرني شيء يمكن أن يكون أحدهم قد قرأه لي عن الصقيع  
قبل أن أكتب قصة «ملك الصقيع» هذه ، لكنني لم أذكر قط

أي شيء آخر فيما عدا الإشارات العابرة إلى جاك فروست (جاك  
الصقيع) (١) ، وكذلك قصيدة للأطفال أدرك جيداً أنني لم  
أستعملها في قصتي .

وبدا في أول الأمر أن المستر أوجوس يصدقني بالرغم من  
المتاعب الكبيرة التي سببها له نشر القصة ، وكان صيماً معي ورفيقاً  
بي بدرجة غير مألوفة ، لكنه ظل مكتئباً لبعض الوقت ، ولكني  
أدرك السرور على قلبه حاولت ألا أهدر عينة يائسة وأدّجّل من  
عصى شخصاً صغيراً بقدر لإمكان حتى يمسني لي المشاركة في  
برومج كما عده في المدرسة بمناسبة «عيد ميلاد جورج  
واشنطن» (٢) ، وهي اليوم المسابقة للمراجم سألني إحدى  
المدرست سؤلاً حول قصة «ملك الصقيع» ، فكتب لها  
آسة موليغان كتاب قد تحدثت لي عن «جاك الصقيع»

١ تسمية «جاك فروست Jack Frost» عبارة عن تسمية للصقيع Frost و  
لقطس التي برجه عام على حيلة إيساك على نحو ما يقين بعض متلاً  
«الحاج شتا» على فصل الشتاء

٢ جورج واشنطن George Washington هو رعيم الثورة الأمريكية ضد  
الحكم البريطاني وقائد الجيش الذي حرر أمريكا من سيطرة جيش الاحتلال  
البريطاني ، وهو أبنا أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية التي تأسست  
عقب التحرر ، وباسمه سميت كل من العاصمة الأمريكية «واشنطن» وولاية  
«واشنطن» وقد عاش بين عامي ١٧٣٢ - ١٧٩٩ وحكم الولايات المتحدة  
لثلاثين بين عامي ١٧٨٩ - ١٧٩٧ ويُعدّ يوم ميلاده (٢٢ فبراير) أجاره  
رسمية ومناسبة لومية في الولايات المتحدة

وأعماله اندهشة، ويسمو أن شيئاً مما قلته قد جعلها تعتقد أنني أعترف لها بتذكرى لقصة الآسة كاتبي «حيات الصقيع» .. وإذا بتلك المدرسة تذهب إلى امستر أناجوس وتحريره بما تحيلته، برعم أنني أحيرتها بأنها محطته في ذلك لا اعتقاد

يا للمحب، إني أتذكر اليوم التالي لذلك ليوم - وهو يوم عيد ميلاد جورج واشهر - ففى إطار الحفل الذى كان الطسة المكسوفين ميشاركوف فيه على المسرح كنت أمثل الحريف وانحصاد، مما جعلنى أرتدى ملابس جميلة فضفاضة، وأصبع على شعرى إكليلاً من أوراق الخريف اللامعة، وأمسك في يدي رأيت في قدمي بعض بما كفه وبساتات الحبوب. وكان الحفل ساراً بهيجاً، لكن شعوراً حسناً داخلي كان يؤكدنى أن شيئاً فسيماً يوشك على الحدوث. لأمر الذى جعلنى معموه وحائفة!

ففى ذلك كان المستر أناجوس يحترمنى وبعامتى بقدر كبير من الطيبة، لكنه لال بعد ما قالته تلك المدرسة غير الأممية صار يعتقد - أو على الأقل يشك - أنى والآسة سوليفان قد سرقنا أفكاراً وعبارات شخص آخر، وأنت أرسلنا له انصه له جعله يكن لى الإعجاب وقد طلبوا منى أن أمثل أمام مجلس تحقيق يتكون من الأساندة وبعض التلاميذ الآخرين للتحقيق بمؤسسة بركر، وطلبوا من الآسة سوليفان أن تتركى وحدى. وفي مجلس

التحقيق راحوا يسألونى مسئلة كثيرة شعرت منها أنهم يعتزمون أن ينشروها منى، اعتراضاً بأن أحداً قد قرأ لى من قبل قصة «حيات الصقيع»، وكان كل سؤال من أسئلتهم يشعربى برئيتهم وشكوكهم الطائلة وعلى الإحساس أبعاً بأن صديقى المستر أناجوس كان ينظر إلى ويقول فى صمت: «كيف تجرؤين على هذه الفسلة الدسشة؟» وكان قبي يدق بسرعة ولم يكن باستطاعتى لكلام، وأدركت أنهم يتهموسى بشئ لم أفعله، ولم تكن ثقتى الشامة بأننى لم أفعل ذلك لتفلس شيئاً من معاناتى، وعدمى سمحوا لى بمغادرة القرفة آخر الأمر، شعرت بقرين كاتبي أسير وأنا بالثمة وبه أنته إلى الآسة سوليفان وهى تحاول مهدنة مشاعرى، وانتهت بالكاد إلى الكلمات الرفعة التى صدرت من أصدقائى الذين قالوا إني فتاة شجاعة وأهم محوريين بى!

وحينما رقدت فى فراشى فى تلك الليلة اضطرب فى اليكاء، وشعرت ببرودة شديدة تصورت معها أنى سأمرق قل قدوم انصباح. وكنت فى الواقع أسمى ذلك وأعتقد أن هذه التجربة انعطيفة لو كانت حدثت لى وأنا فى سن كبير لكنت قد حطمت نفسى وروحى تماماً، لكن لما كنت فى ذلك الوقت فى الثانية عشرة من عمري فقط، فقد كان الرمس كفيفلاً بتبديد القدر الأكبر من أحزائى ومع كل ما تجرعت من مرارة تلك الأيام التعبة

لم تكن الآسة موليفان قد سمعت قط بقصة «جنيات الصفيح» أو بالكتاب لدى كانت مشغورة به . وقد حاولت معلمتي بمعاونة الدكتور الكسندر «جرهام بل» أن تكشف لغز الشخص لدى يمكن أن يكون قد قرأها لي ، واكتشف في نهاية المطاف أن مسر هوبكر كان لديها نسخة من كتاب الآسة كاسي في عام ١٨٨٨ ، وهو العام نفسه الذي قضينا فيه الصيف معها في برونز بمضقة كيب كود . وقد أبلغتني مسر هوبكر بعد ذلك أنها لا تستطيع أن تجد نسختها من ذلك الكتاب ، وأنها كانت تعكف على تبني بقراءة مجموعة من الكتب في ذات الوقت من ذلك الصيف الذي ذهبت فيه لآسة سليفان بقضاء أجازتها بعيداً . ولم تتذكر المسر هوبكر أنها قرأت لي قصة «جنيات الصفيح» بالذات ، لكنها كانت متأكدة من أن كتاب «بردي وأصدقائه» كان من بين الكتب التي قرأتها . كما قالت أيضاً إنها لا تستطيع العثور على الكتاب لأنها حين باعت موليفان وهبت لكثير من كتب لأصدقائها لمحتاحين

وفي ذلك الوقت - يكن بقصص سوى القليل من الأهمية أو لأهميته لها على الإصلاق بالنسبة لي ، لكن عملية محاء الكلمات لمربية هي حد ذاتها كانت كافية لتسليط طفنة صعبه يسر بوسعها فعل أي شيء من أجل بسية نفسها . وبالرغم من كوني لا أتذكر أي شيء يتعلق بقراءة القصص ، فأبني أتذكر ذلك

الجهد الكبير الذي كنت أبده في حفظ الكلمات لكي يسي لي أن أسأل معلمتي شرح معانيها حينما تعود . وهناك شيء واحد مؤكد : أن اللغة كانت تطبع في ذهني ، برغم أن أحداً لم يتيه إلي ذلك لفترة طويلة بما في ذلك أنا نفسي .

وأعتقد أنني لم أأخذني إلى الآسة موليفان . حين عادت في ذلك الصيف - عن قصة «جنيات الصفيح» ، لأن من المحتمل أنها بدأت على الفور نقرأ لي كتاباً آخر أثار اهتمامي بشدة . وحلاصة القول أن قصة الآسة كاسي قد قرئت لي فعلاً ، وأنها بعد بساني بها بفترة طويلة تواردت إلي ذهني بصورة طبيعية اعتقدت معها أنها قصتي أنا . فهذا هو التفسير المعقول الذي توصلت إليه بعد درسه لمسألة من جميع جوانبها مع أصدقائي المختصين

وقد تلقيت حينما كنت أعاني من تلك الحقبة الكثير من رسائل الود والتماطل ، واتشجيع من الأصدقاء ومن المرءاء الذين عرفوا بتلك القصة وتأثرو بها ، وقد حرص جميع أصدقائي المصريين الذين احترمتهم احترام كبيراً على الاحتفاظ بصداقتي ماعداً واحده سامحها الله . وقد كتبت لي الآسة كاسي نفسها ذات يوم تقول «يوماً ما سوف تكتب قصة عظيمة من نبات أفكارك ، وستكون تلك القصة عوياً لكثيرين رسماً في رحة بمرسه»

كفى لم أفعل ذلك قط . لم ألعب قط بالألعاب مرة أخرى مجرد الاستمتاع باللعب ، بل إنى بعد تلك الحقبة المريعة كنت فى عية التشكك وأحاف عالياً من أن يكون ما أكتبه ليس من إشتائى وسعت فى تفكيرى هـد حذاً اعتقدت معه أنه إذا جاءت إلى الكميات متدفقة فى سهولة ويسر هـد دليل أكيد على كبرها ليست من إشتائى ، وكنت وى بالأشرف أسامه وأعادود التفكير فى غيرها . وحتى الآن مارت فى أعين الأحوال لا أستطيع التاكيد من الحدود الفاصلة بين أفكارى وأفكار الآخرين التى قرأتها فى الكتب ، وأبعد أن السبب فى ذلك يرجع حثيثاً إلى أن لكثير من الآباء والمعلمين أتى إلى من خلال غيول وأدان الآخرين

وقد قرأت قصة « حياى الصفيح » بعد فترة محتشى الكبرى ، وقرأت أيضاً بعض « حصارات التى كتبتها فى مقتنيها نفسها ، فوجدت أنى استخدمت فى تلك المحطات بعض أفكار الآسة كاسى . فعلى رسالة بعثت بها إلى المسنر أناخورس بتاريخ ٢٩ سبتمبر عام ١٨٩١ وجدت كلمات وتعبيرات ومشاعر مماثلة لبعض ما يحثويه الكتب . وما كان ذلك هو الوقت الذى كتبت فيه قصة ملث الصفيح ، فإن هذه الرسالة توضح بجلاء أن ذهنى كان مليئاً بأفكار وتعبيرات وكلمات مصدرها تلك القصة ، فقد كتبت مثلاً أن لآسة سوليفان قالت عن أوراق الحريف الذهبية : « نعم ،

إنها رائعة بالقدر الكافى لإمتاع بموسم طيلة ماينبقى من هـد الصيف » وهذه الفكرة دنها موجوده فى قصة الآسة كاسى ١

وتنك العدة لمتحشة فى استيعاب ما يروق لى ثم إنخرجه مرة أخرى على أنه من إشتائى يظهر فى الكثير من رسائله المبكرة وفى محاولائى لأولى للكتابة ، فمثلاً فى موضوع إنشاء كتبه عن المدن القديمة فى اليونان وإيطاليا ، أخذى قد استعرت وصفها البارة من مصادر سبقتها ، وإن كنت قد أدخلت عليها بعض التعديلات ، ولما كنت أعرف أن المسنر أناخورس كان لديه نوع كبير من حصارات الإغريقية والرومانية فقد جمعت من كل الكتب التى قرأتها شيئاً من القصائد أو النصوص التاريخية عثقت أنها سوف تسره ويد أن مسنر أناخورس قد أعجبه موضوع الإنشاء هذا بدرجة كبيرة . وقد قال إن الأفكار معبر عنها بما يشبه لأشجار وإن كنت لا أفهم كيف كان يوسعه لاعتقاد بأن صفة صماء ومكسوفة عمرها أحد عشر عاماً يمكنها أن تدع مثل هذه الأفكار ومن ناحيه أخرى فلا يمكننى الاعتقاد بأن موضوع الإنشاء الصغير هـذا لا قيمة له على الإطلاق لجرد أن أفكاره لم ينبع من دحللى ، فهذا الموضوع ينبع أنه كان باستطاعتى أن أعبر عن تقديرى للأفكار « حميلة والربط المتاعم بينها فى لغة واضحة سهلة فهم

كانت موضوعات الإنشاء المبكرة، تلك عبارة عن تدريبات  
لدهى ، فقد كنت أتعلم صياغة الأفكار من الكلمات كما يتعلم  
كل الصغار ومن يقتفرون إلى الحجرة عن طريق التقليد ولهاكاة  
ومواء انتهت إلى ذلك أم لم أنتبه إليه فقد كان من عادتي أن  
أذكر كل ما يعجبني حين أقرأه في الكتب ، ثم أهوم بالتعبير عنه  
وصوعه بصريقتي الخاصة وكما قال المؤلف الأسكتلندي روبرت  
لويس ستيلسون ، إن الكاتب الصغير يحاول أن يسبح كل ما يندو  
به جيداً ، وهو عابثاً ما يعبر أية كلية فيما يعثره جيداً وحتى  
عظماء المؤلفين لا يمكنهم أن يتعمرو كيف يستعملون حصية  
بكلمات التي متألت بها عقولهم إلا بعد سنوات صويلة من هذا  
النوع من الممارسة

وأخيراً لا أكون قد أسمت بعد هذه لعمية ، فمن المؤكد  
ننى لا أمتطيع دائماً لتفسير بين أفكارى الخاصة والأفكار لنى  
قرأتها ، لأن ما أقرأه يصبح لصيقاً بدهى ولهذا السبب فإن ما  
أكتبه سيه للعباية بما كنت أحيكه فى أعومى المبكرة فحينما  
كنت أكتب كنت أيضاً أحيك قطعاً من أنواع مختلفة من القماش  
وأوصدها ببعضها البعض ، وكانت بعض هذه لقطع من سيج  
حريرى ناعم وطرى ، إلا أن أغلبها كانت من أقمت عليقة خشنة  
الملمس وبهذه الطريقة كانت مواصيع الإنشاء التى كنت  
أكتبها تشتمل على أفكار بسيطة من بات أفكارى موصولة بأفكار

وأراء أكثر روعة ولعباً من بات أفكار المؤلفين البارعين الذين  
قرأت أعمالهم ويدرو لى أن الصعوبة الكبرى فى الكتاب (أى  
التأليف) تتمثل فى جعل اللغة القصصى تعبر عن أفكار ومشاعرنا  
المختمة ، فمحاولة الكتابة تشبه إلى حد كبير محاولة تركيب أجزاء  
الصورة المكونة لنغز الصورة المقطعة<sup>(٣)</sup> مع بعضها البعض .  
فتحن يكون فى أذهاننا عادة نموذج برغب فى تصيده بالكلمات ،  
لكن الكلمات قد لا تناسب الفراغات الموجودة ، وإذا كانت  
ناسبها فهى قد لا نطاق نموذج التصميم . لكننا استمر فى  
لمحاولة لجرد علماً بأن الآخرين حاولو ونجحوا ، ولأننا لا نرغب فى  
التسليم بالفشل .

وعلى أية حال فقد أفادنى محتى الكتبة ، إذ جعلنى أفكر  
فى المشكلات التى تعترض من الإنشاء ، أى فى الكتابة والتعبير ،  
وكل ما يؤمضى أن تلك الحجة أفقدتني واحداً من أعز أصدقائى هو  
المستر أناجنوس !

وبعد أن نشرت قصة حياتى فى إحدى المجلات كتب المستر  
أناجنوس رسالة قرر فيها أنه أثناء فترة الحجة التى ناست فيها قصة

(٣) لغز الصورة المقطعة jigsaw puzzle عبارة عن صورة من الورق اللغوى أو  
الخط أو البلاستيك مقسمة إلى أجزاء غير منتظمة الشكل ، بحيث أن إذا تم  
التوفيق بين الأجزاء بالطريقة الصحيحة تكونت الصورة والاضحت معالمها

رويت لأعرابي القراء كل ما سمع عن محبة الملوك الصنيع  
لأنها كانت ذات تأثير كبير في مجرى حياتي وفي مسار تربيته  
ولذلك يوجهني لبعض تأييد من سوء فهم فقد ذكرت كل  
الحقائق التي أعرفها فيما يتعلق بتلك الأرمه ، دون أن أقصد من  
ذلك الدفاع عن نفسي أو لوم أي شخص آخر .. بها الحقيقة  
لتي يسعى أن يعرفها أصدقائي القراء ، وأترك لهم الحكم على  
راجية أن يكونوا قصة عادلين .



«ملك الصنيع» كان مؤمناً ببراءتي ، كما قال ابن العنصر الذي  
اشترك في محاكمتي كان يتكون من جماعة أشخاص ، أربعة  
منهم مكفوفين وأربعة مبصرين ، وأن أربعة من هؤلاء أقصدوا  
قرارهم بأنه لابد من أن تكون قصة الأنسة كاذبة قد قرئت لي ،  
بيما وقف الأربعة الآخرون في صفي ، أما هو - أي المستر  
أناجنوس - فقد صوب معهم لصالحي .

ولم أكن أعلم بهذا الموقف ، ما الذي علمته كل العبد  
وعايت منه كل المعاناة فهو أنني حين دخلت تلك العرفة المعقد  
فيها مجلس التحقيق - وهي العرفة التي كان المستر أناجنوس في  
المدعى بآب معي فيها كثير - بدت لي كما لو كانت عرفة  
مستنة بالأعداء وسعرب أن كل شخص فيها يعتبره الشك في  
حقيقة ما أمور ولم أعلم قط بأسماء أعضاء المجلس الذي قام  
بمحاكمتي فهم لم يتحدثوا معي كما ينبغي كنت مرتبكة  
للعباية وفعلة للعناية إلى حد لا يمكنني معه أن ألقى عليهم  
بالأسئلة بل إنني في واقع الأمر لم أكد حتى أفكر فيما كنت  
أقوله أو فيما كان يقال لي . ويبدو لي أن المستر أناجنوس ظل مدة  
عامين مؤمناً ببراءتي وبراءة لآنسة سوليفان ، ثم غير رأيه بعد  
ذلك ، ولا أعلم السبب الغريب وراء هذا التغير !



## الفصل الثامن

### قضية

الصيف والشتاء بعد محبة قصة «ملك الصقيع» مع أسروني في ولاية ألاباما ، وكنت سعيدة بالوجود في منزلنا . وبعد عام من كتابتي لقصة «ملك الصقيع» بدأت في كتابة قصة قصيرة عن حياتي لإحدى مجلات الأطفال ، وقد تخشعت في ذلك عاء كبيراً ؛ إذ كان يساورني الكثير من القلق حول ما أكتب ، وأحياناً كنت أقول لمعلمتي : «ربما كنتش البعض أن هذه القصة أيضاً قد كتبها شخص آخر من زمن طويل» . وكاد عمري في ذلك الوقت اثني عشر عاماً ، وحين أتذكر الآن هذا الأمر أتذكر معه أن معصمي مضت تشجعتني على الكتابة لتجعلني أستعيد ثقتي بعقلي ، إذ لم أكن في ذلك الوقت قد انتعشت بعد من تجربتي الحرة في العام السابق ، وكانت الآيسة سوليمان تترك أنني إذا واصلت محاولاتي لكتابة سوف يجعلني هذا فادرة على السيطرة على أفكارى ومشاعري .

وتتمثل أهم الأحداث التي وقعت لي في عام ١٨٩٣ في السفر إلى واشنطن في الوقت نفسه الذي نوبى فيه «جروفر كليفلاند» رئاسة الولايات المتحدة ، وفي زيارتي لشلالات نياجرا والمعرض الدولي . وقد تعرّضتُ دراساتي المنتظمة للانقطاع في تلك الفترة

بسبب الصفر ، الأمر الذي يحول بيني وبين تقديم وصف متصل لتلك الدراسات في هذه السطور .

ذهبا إلى نياجرا في مارس ١٨٩٣ ، وربما كان من الصعب عليّ أن أصف شعوري حين وقعت على موقع من الأرض يقع فوق الشلالات الأمريكية<sup>(١)</sup> ، وصار يرسمي أن أشعر بكل من حركة الأرض وحركة الهواء .

يعتقد أهلي ومعهم بعض الناس أنه من غرائب الأمور أن أزعج أنني أتمتع بمظاهر الجمال في شلالات نياجرا وبمعجائب الطبيعة الأخرى ، وهم دائماً يسألونني : «مالذي يعيه هذا الجمال وما الذي تعبى الطبيعة التي تتحدثين عنها بالنسبة لك ؟ إنك لا تستطيعين رؤية الأمواج تنحدر نحو الشاطئ أو سماع هديرها . فما الذي تعبى حقاً تلك الأشياء بالنسبة لك ؟» . وما أن بدوري تؤكد بوضوح وبما لا يحتمل التأويل أنها تعني كل شيء بالنسبة لي ؛ فأنا بحواسي لا يمكنني أن أفهم الحب أو الدين أو حسن الخلق أبداً ، لكنها جميعاً تريد من مهمي للحياة . وهكذا الأمر بالنسبة للجمال والروعة والطبيعة !

(١) الشلال waterfall منطقة تسقط عندها مياه أحد الأنهار بصورا مفاجئة ، نتيجة لوجود انخفاض مفاجئ في مستوى الصخور المكوبة لقاع النهر . وشلالات نياجرا توجد على الحدود بين أمريكا وكندا ، وتنقسم إلى جزئين كندي وأمريكي . وهي تعد من أصعب وأروع شلالات العالم

البشرية! وكانت جميعها تمر تحت أناملتي ، فقد منحني رئيس  
المعرض الدولي في بادنة كريشة منه بذاً خاصاً بلمس كل  
المعروضات ، ومن ثم فقد رأيت بيدي أسواق الهند ، ونموذجاً  
لمدينة القاهرة بصانيتها الفريدة الطراز ، وفي كل أمسية كنا نبحر  
في قنوات شبيهة بقنوات البندقية (٢) .

كذلك صعدت إلى ظهر إحدى سفن الفايتنج (٣) ، ومرت  
سفينة حربية حديثة في بوسطن . وقد عرفت أن السفينة الحديثة  
بها قدر كبير من الأجهزة والآلات ، أما السفينة القديمة فقد كان  
البحارة أنفسهم هم كل ما بها من الأجهزة والآلات (٤) .

وعبر بعيد عن تلك السفينة كان هناك نموذج للسفينة سانت  
ماريا ، وهي السفينة التي أبحر فيها كريستوفر كولمبس (٥) من

(٢) البندقية Venice مدينة بشمال شرق إيطاليا ، وهي تتكون من ١١٨ جزيرة  
تقع جميعها في بحيرة تحلة قليلة العمق ، ومن ثم تفصل بين أحياء المدينة  
أي الجزر قنوات مائية وليس شوارع كما هو الحال في مدن العالم الأخرى!

(٣) الفايتنج vikings شعب قديم استقر في بلاد النرويج والسويد والدنمارك  
بأقصى شمال أوروبا ، وتسير بمرحلة خاصة في ركوب البحر والملاحة مما مكّنه  
من القيام بغارات بحرية للهبوط والسطو على الكثير من بلاد أوروبا لذلك  
عرفوا أيضاً باسم غزاة الشمال .

(٤) بمعنى أن البحارة كانوا يؤمنون بقواهم العقلية ما تقوم به الآلات في السفن  
الحديثة فهم مثلاً يقومون بالتجديف لنفخ السفينة وسط الأمواج

(٥) كريستوفر كولمبس Christopher Columbus الملاح الإيطالي الذي اكتشف  
أمريكا عام ١٤٩٢ ، وكانت سانتا ماريا santa maria سفينة القيادة وقد  
صاحبها سفينتان أخريان



أحد المشاهد البارزة في عصر هيلين كيلر حروف كيليلاند بسم في عام ١٨٩٢  
اليمين القاري في حفل تصيبه لوريس الثاني والعشرين للولايات المتحدة . وكانت  
هيلين في ذلك الوقت موجودة بالعاصمة واشنطن التي جرى بها حفل التصيب

وفي عام ١٨٩٢ ذهبت مع الأنسة سوليمان ولدكتور  
«الكسندر جرهام بل» زيارة المعرض الدولي وصارت أذكر تلك  
الأيام بسرور ففيها تحققت الكثير من أحلامي ، إذ كنت في كل  
يوم أتخيل نفسي أقوم برحلة حول العالم ! وقد رأيت في المعرض  
الكثير من العجائب القادمة من كل أرجاء الأرض اختراعات  
مدهشة ، وبتائج اصصاعات ولهايات المختلفة ، وكل أسطة الحياة

نسبها إلى أمريكا. وقد قمت بمحضر قمرة (كابينه) كولمبس ومابها من أدوات بسيطة كان يستخدمها في الملاحة. وأعتقد أنه بوسعى (وبوسعى أنا بصفه خاصه) أن أتجمل كيف كان كولمبس يشعر وهو يحتر مبتعداً عن العالم المعروف ومتيحاً إلى المجهول!

وفي جناح جنوب إفريقيا عرفت الكثير من المعلومات عن كيفية الحصول على الماس من ساحمه في باطل الأرض. وكنت كلما أمكن ذلك أحرص على لمس الآلات أثناء دوراتها من أجل تكوين فكرة أوضح عن الكيفية التي يتم بها وزن تلك الأحجار الكريمة وقطعها وصقلها

وكان الدكتور بل يرافقتا إلى كل مكان، وكنت بطريقه الخاصة الباعثه على اسرور يصف لى الأشياء المثيرة للعاية؛ ففي حده آلات الكهربية قضا بمعايينة التيفونات والاحتراعات الأخرى، ومضى بشرح لى كيف يمكن إرسال الرسائل عبر الأسلاك إلى مسافات بعيدة.

ونما أيضاً بمشاهده آثار الحضارات لقديمه، وأكثر ما أنارنى هو تلك الأدوات الحجرية<sup>(٦)</sup> البسيطة التى صنعها هود لمكبث (٦) قبل توصل البشر إلى اكتشاف أساليب صهر المعادن وصناعة أدواتهم منها. كانت الأدوات المختلفه عموماً الاسيحه والأدوات الحاده تصنع من الحجر لذلك فالمعصر السابقه على اكتشاف المعادن تعرف فى مجموعها باسم «المعصر الحجرى» سببه إلى تلك المصنوعات الحجرية وليس لمفهوم المعصر الحجرى انه «عصر التخلف والهمجية»، فقد اكتشفت حضارات ذات مستوى طيب من الرقى تنتمى إلى ذلك العصر!

الذين عاشوا منذ عصور بعيدة، كما أثارت اهتمامى أيضاً الموميائات<sup>(٧)</sup> المصرية القديمه، مع انى رفضت لمسها خوفاً منها! وقد تمتعت من كل هذه الأشياء قدرأ كبيراً من المعلومات عن التقدم الحصارى للإنسان أكثر مما سمعت أو قرأت فى كل ماوقع بين يدى من كتب، كما علمتني كل هذه التجارب عدداً كبيراً من الكلمات الجديدة، وحققت خلال الأسابيع الثلاثة التى قضيتها فى المعرض قمزة هائلة من مجرد اهتمامات طفلة صغيرة باللعب والقصص إلى فهم وتقدير إنسان باضج بعالم انحياء اليومية

وقبل حلول شهر أكتوبر من عام ١٨٩٣ كنت قد درست العديد من الموضوعات بمضى؛ إذ قرأت تاريخ كل من بلاد الإغريق وروما والولايات المتحدة. وكان لدى كتاب فى قواعد النسخة الفرنسية مطبوعاً بالحروف البارزة (حروف برايل)، وكنت أعرف قدرأ من الفرنسية يكفى لتكوين بعض الجمل والموضوعات الإنشائية الصميرة فى ذهنى. وقد تمتعت باستخدام الكلمات الجديدة التى وجدتها فى كتابى الفرنسى، لكننى لم أوجه عناية

(٧) الموميائات mummies ومفردها مومياءه هى الجثث المخططة القديمة التى تنتمى لعصور تاريخية سابقة. ويطلق هذا المصطلح بصفه خاصه على موميائات المصريين القدماء التى حفظوها بالتحنيط شأ منهم أن ذلك يسهل بحث الموتى يوم القيامة. ونحن الآن ندرك جيداً أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق البشر من طين قادر كل القدرة على بعثهم من جديد.

كافية لقواعد اللغة الفرنسية بل ركزت على محاولة تعلم النطق الصحيح للكلمات الفرنسية ، وكان هذا أسراً مستحيلاً تقريباً لكنه كان إلى حد ما مثلاًتي في بعض الأيام المطيرة . وكنت أعرف من الفرنسية ما يكفي لأستمتع بقراءة بعض قصص مشاهير المؤلفين الفرنسيين ،

وفضيت أيضاً شطراً كبيراً من وقتي في محاولة تحسين مقدرتي على الحديث ، وكنت أقرأ للآنسة سوليفان بصوت سريع أو كب ثقي بعضاً من قصائدي المفصلة التي أحفظها . وكانت الآنسة سوليفان تصحح لي كلما أخطأت في كلمة ، وتدوني في التحكم في درجتي صوتي بالرفع أو الخفض ليسدو حديثي طبيعياً بقدر الإمكان.

وفي أكتوبر من عام ١٨٩٣ ، بدأت - بعد أن أفقت من حالة اندهشه والذهول التي سببها لي المعرض الدولي - في تنقي دروس منظمة في أوقات منتظمة . وكنت في تلك الآونة قد اعتدت أنا ولآنسة سوليفان على زيارة بعض الأصدقاء في بيلقانيا<sup>(٨)</sup> ، وكان لدى هؤلاء الأصدقاء جدار يدعى "المستر أيروز" كان يعرف اللغة اللاتينية معرفة جيدة وبدأ يعلمها لي ، ومارلت أندكر ذلك الرجل الذي كان حلو السمائل ودمت الأخلاق بصورة نادرة ،

٨١ - بيلقانيا Pennsylvania ولاية أمريكية بشمال شرق الولايات المتحدة

وهذا إلى جانب اتساع معرفته وحيراته . وقد عكف المستر أيروز أساساً على تعليمي اللاتينية ، لكنه عاونني أيضاً في الحساب الذي كنت ما أزل كارهة له ، وراح يقرأ معي بعض عيول الشعر لإنكليزي . وعلمت في ذلك الوقت أن أعرف على الساعر من أسلوبه كما لو كنت أتصرف على أحد الأصدقاء من طريقة مصافحته لي !

وكنت في أزل لأمر غير رابعة في دراسة قواعد اللغة اللاتينية ، لاعتقادي أنه من السحب التعقيد في دراسة بعض الكلمات يسما معاني الحمل وصحة ، كسي كما مضى هي تلك لدرسة ارددت اهتماماً بها ، إذ كان حمد الله نير السهجة في نفسي ، بلرحة أسي كثيراً ما كنت أسلي نفسي بقراءة بعض الحمل اللاتينية ومحاولة فهم المعنى حتى برعم علم إلمامي بمعاني كل الكلمات بل إلى في واقع الأمر مارلت أستمتع بهذا المسلك ، خصوصاً وأنا أعتقد أنه لاشئ هناء أروع من الصور والأفكار التي يستمددها المرء من لغة بدأ لتوه في تعلمها . وكانت الآنسة سوليفان تجلس بحواري وأنا ألتقي دروسي ، وتنهجي عني بدي كل مايقوله المستر أيروز ، وسحت لي عن معاني الكلمات الجديدة في المعجم . وفي الوقت الذي عدت فيه إلى مرلنا بولاية ألاباما ، كنت قد بدأت لتوي في هراءه كتاب: حرب قبصر لي

وفي أكتوبر من عام ١٨٩٤ التحقت بمدرسة «رايت - هوماسون» للعلم بمدينة نيويورك وصحبتني إلى هناك الأنسة سوليفان ، وقد تم اختيار هذه المدرسة من أجل أن أتعلم فن قراءة الشعاع ، وكذلك من أجل تحسين مقدرتي على الكلام . وفي هذه المدرسة درست أيضاً الحساب والجغرافيا واللغتين الفرنسية والألمانية وكان باستطاعة معلمة اللغة الألمانية استخدام أبجدية الأيدي ، الأمر الذي ساعدني كثيراً على التقدم في دراسة هذه اللغة وبعد أن تعلمت قدرٌ كافياً من الكلمات مصيهاً تتحدث بالأدب كمن سحبت لنا العرصه ، وبعد عدة أشهر كان بمقدوري فهم كل كلمة تقولها المعلمة ، وقيل لي نهاية لسة الدراسية الأولى قرأت بشعب وسرور عملاً نسياً يسمى «ويم تيل»<sup>(١٠)</sup> وأعتقد أنني حققت في دراسة اللغة الألمانية تقدماً يفوق أي تقدم آخر حققته في أي من دراساتي الأخرى<sup>(١١)</sup> ، فاللغة

(٩) قيصر هو «يوليس قيصر» "Julius caesar" السياسي والفنان العسكري الروماني الشهير . وبلاد العالم هو الاسم القديم لفرنسا . وقد غزا يوليس قيصر فرنسا لما بين عامي ٥٨-٥١ ق م

(١٠) عمل في شهر للشاعر الألماني «هيلر Schiller» تدور أحداثه حول البطل الوطني الشهير «وليم تيل» الذي قاوم الاحتلال النمساوي لبلاده

(١١) اللغة الألمانية هي أقرب اللغات المعاصرة إلى اللغة الإنجليزية ، وكلاهما تستخدم أصلها من لغة قديمة «البروتونية» proto-Indo-European

الفرنسية مثلاً كانت أكثر تعقيداً ، وكنت أدرسها على يد سيدة فرنسية لم تكن تعرف أبجدية الأيدي ، وكان من المتعذر عليّ كذلك أن أفهم شعبيها ، لذا تعذمت في دراسة الفرنسية بمعدل أبطأ كثيراً من تقدمي في دراسة اللغة الألمانية . ومع ذلك تمكنت من قراءة عمل فني شهير للكاتب الفرنسي الساخر الكبير «موليير» ، وكان عملاً مسلطاً للغاية لكنني لم أعجب به بمصر القدر الذي أعجبت به من عمل «وليم تيل» .

ولم يكن تقدمي في قراءة الشعاع وفي التدريب على الحديث بالقدر الذي كنت أنا والمعلمات مرحبه وتوقعه ، إذ كنت أطمح إلى تعلم الكلام على النحو الذي يجعلني أنكلم كالأخرين . وكانت المعلمات يعتقدن في إمكانية تحقيق هذا الهدف ، لكن بالرغم من أسا عملاً جميعاً بجد وإخلاص فلم يكن بمقدوري أبداً أن أرتفع إلى المستوى الذي طمحنا إليه ، وأعتقد أننا وضعنا أمامنا هدفاً بعيداً مما جعلنا نحقق في تحقيقه!

أما علم الحساب فكان بدوره شديد الصعوبة بالنسبة لي ، وقد اعتدت على أحد أمرين : إما أن أحسن الإجابة ، أو أن أجيب دون اتباع أسلوب التفكير المنطقي . وهكذا سببت بلاخضرة وبسبب طموحي لزيادة - قدرٌ كبيراً من المتاعب لنفسى ولأولئك الذين توافروا على محاولة تعليمي .

وهي بعض لأحياد كنت تلك الإحفاقات صبيى بالبحر ،  
لكن اهتمامى بالعلوم الأخرى كان يساعدى على المصى فى  
اعاولة وقد استمتعت بصفه حصة بعلم الجغرافيا ، إذ كان من  
دعى أبهى حتى أن أتعلم أسرار الطبيعة كيف بهت سرياح ،  
وكيف سحت الأنهار محاربيها عبر الصحور ، وما لى سبب  
هطول الأمطار ، وكيف يستطع الإنسان أن يقهر الكثير من قوى  
الطبيعة الأشد منه بأساً !

كان لعذاب النداب فصبتها فى نيويورك عامين سعيدين إلى  
حد بمعنى شعر بالمعادة كنت طافا بحاطرى ، إلى لأندكر  
بصفه حصة سكت سرهاب التى كان الصلاب جميعاً يقومون بها  
مما كل يوم هى متره «سترال بارك» ، إذ كان هذا المنزه موقمى  
«مفصل» الأنهر إلى عسى فى مدينه نيويورك ، وكنت دوماً أشعر  
بالهجة فيه ، بل وأحب أن يوصف بى فى كل مرة يردده فيها .  
يد يدولى أن جماله كان فى كل يوم يتراءى لى بصورة محتفة  
عن اليوم لسابق له . وفى اربيع فمما بريرة العديد من المساطق  
الجذابة المحيطة بمدينة نيويورك ، ومن ذلك مثلاً أنا أبحرنا فى نهر  
«هندسون» ، ذلك النهر الذى نظم فيه اشاعر الأمريكى  
«بريانت»<sup>(١٢)</sup> بعض قصائده ، والذى أحببت مايجف بصمته من

(١٢) بريانت Bryant شاعر وصحفى أمريكى عاش بين عامى ١٧٩٤-١٨٧٨

مساطر بريرة جميلة وأحاذه برعم ماهى عليه من البساطة وقصا  
أيضاً بريرة منزل الكاتب الأمريكى «واشنطن إرفنج»<sup>(١٣)</sup> فى  
تاريتاون ببيويورك وكان المعلمون بمدرسة رايت هوماسون يفكرون  
دائمً فى طرائف حادثة لجعل حياة تلامذتهم لمصابين بالصم  
حياة سوية كحياة أولئك الذين وهبهم الله نعمة السمع العظيمة .

\*\*\*\*

(١٣) واشنطن إرفنج Washington Irving (١٧٨٣-١٨٥٩) أول كاتب  
أمريكى نال شهرة عالمية وقد درس الحضارة الأندلسية عندما كان صغيراً  
للولايات المتحدة فى إسبانيا ، ومن مؤلفاته الشهيرة «قصص الحمراء» عن قصر  
الحمراء «القصة العربية الإسلامية فى غرناطة» ويحذر بالذكر أن حقه  
- واسمه واشنطن إرفنج- أيضاً مستشرق كبير وقد اشتهر إسلامه

## الفصل التاسع

في

أكتوبر من عام ١٨٩٦ التحقت بمدرسة «كمبردج» لنبات من أجل التأهل للالتحاق بكلية «رادكليف»<sup>(١)</sup>. وما كنت فتاة صغيرة بعد فقد فمت بزيارة كلية «ويلزلي»<sup>(٢)</sup> وحقاب أصدقائي بإعلاني عليهم أسي سوف ألتحق ذات يوم بالجامعة وبصفة خاصة بجامعة «هارفرد»<sup>(٣)</sup> الشهيرة ، وحين سألتني لماذا لا ألتحق بكلية ويلزلي أجتهم بأنها ليس بها سوى الفتيات .

كانت رعبي في الالتحاق بالجامعة نمو ونرايد كلما كبرت ونزهدت سنوات عمري ، وكانت تلك لرعة من الشدة إلى حد أنه لم تكن تشطبي عن الالتحاق بالجامعة فكرة التنافس مع فتيات قادرات على السمع والبصر ، وقد عارض الكثيرون من الأصدقاء الحقيقيين والعقلاء الفكرة ، لكن لأسره قروت في الوقت لدى

(١) كلية رادكليف Radcliffe College تتبع جامعة هارفرد

(٢) كلية ويلزلي Wellesley College توجد في ويلزلي بولاية ماساتشوستس

(٣) جامعة هارفرد Harvard University جامعة أمريكية عريقة تأسست

عام ١٦٣٦ ، ونظام التعليم بها تأثر لفترة طويلة بنظام التعليم الأوربية وتعد من الجامعات الأمريكية المرموقة ، لذلك نلاحظ حرص هيلن كبر على الالتحاق بها

بها

غادرت هيه نيويورك - أن أذهب إلى رادكليف . وكان هذا أقصى ما أمكسي تحقيقه من طموحي في سنوات الصبا إلى الالتحاق بجامعة هارفرد .



منظر لجامعة هارفرد Harvard الأمريكية العريقة حين تأسست عام ١٦٣٦ فقد ظلت أسيه الالتحاق بهذه جامعة لغالب عيبي هيلن كيلو طول سنوات الصبا

في مدرسة كمبودج كانت الأسيه سويلمان نصمحي أثناء الدروس وتتهجي عني يدي ماتقولها المعلمة وبالصبح لم يكن لدى أحد من المعلمين في تلك المدرسة أية حيرة في التدريس للصلبه الصم والمكسومين ، ولم تكن هناك طريقة يمكسي بها تبادل الحديث معهم سوى قراءه شعاههم أما العلوم المعقدة على في



كتاب الأنسة سوليفان تصحى كل يوم إلى الفصل وتتهجى على يدي بصبر يافع كل مايقوله المعلمون ، وفي ساعات المذاكرة كانت تبحث لي عن معاني الكلمات الجديدة في القاموس وتقرأ وتعيد قراءة لمصوص المدرسة في الكتب التي لا تتوفر في صيحات بريل ، ولأنك في أن هذا العمل كان باعثاً لها على السأم إلى حد كبير . وقد تعلم كل من مدرسي اللغة الألمانية والمستتر «حيلمدا» مدير المدرسة «نعدية الأيدي حبيباً من «حل يعيمي» وكتب «لنقى دوساً» خصوصية في اللغة الألمانية مردن كل أسبوع ، وتولي المستتر «حيلمدا» تدريس لأدب الإنجليزي لي صور جزء من الفصل الدراسي ، وقد ساهمت خبرته الواسعة بالتاريخ والأدب ومقدرته السريعة على الشرح في تيسير دراستي وتخويلها إلى عملي أكثر بهجة مما كان من الممكن أن يكون عليه الحال لو أنني اقتصررت على الشرح المخصص الذي كنا نلقاه في الفصل . وفي تلك المدرسة قرأت مجموعة خطب رجل الدولة البريطاني الشهير «إدموند بيرك»<sup>(٤)</sup> ، وقد عرفت من هذه الخطب قدرأ من المعلومات عن أمور السياسة أكثر مما عرفته من أي كتاب آخر قرأته ، كما قرأت أيضاً مع المستتر «حيلمدا» كتاب «ماكولي» عن

(٤) إدموند بيرك Edmond Burke (١٧٢٩-١٧٩٧) ، فيلسوف سياسي وسياسي بريطاني . وبعد الزائد الآن لمكر المحافظين البريطانيين

لعام الأول فكانت التاريخ الإنجليزي ، ولأدب الإنجليزي ، واللغة لألمانية ، واللغة اللاتينية والحساب ، والإشياء باللغة اللاتينية وحتى ذلك الوقت لم أكن قد تنقيت نص أية دروس من شأنها أهلي للالتحاق بالجامعة ، لكنني كنت قد درست اللغة الإنجليزية كثيراً وتمرس عليها مع الأنسة سوليفان ، لذلك سرعان ماقرر المعلمون أنني لست بحاجة إلى المزيد من دراسة اللغة الإنجليزية ، فيما عد القراءة النقدية للكتب التي كانت توصي بها الكلية . كما درست اللغة اللاتينية لمدة ستة شهور ، وكانت الألمانية هي اللغة الأهم التي أعرفها أفضل من غيرها .

كنت في أيسر لتي ، أنت . لكن كانت هناك أيضاً مثال حظيرة ، إذ لم يكن بوسع الآنة سوليفان أن تهجى على يدي كل الكتب المطلوبة كذلك كان من الصعب للغاية الحصول على كل الكتب مطبوعة بطريقة توافر بالسرعة الكافية التي نكفي من استخدامها . بعد مع أن الأصدقاء في فيلادلفيا وسكن به يدحروا جهداً في سبيل الحصول على تلك الكتب وسرعان ما تعلم المدرسون كيف يتفهمون كلامي غير الواضح وصار يحقدورهم الإجابة عن أسئلتني وتصحيح أخطائي . لكنني لم يكن باستطاعتي الكتابة في الفصل أو حل امتحانين عن طريق الكتابة ، وكنت أكتب كل موضوعات لإنشاء والترجمة في بيتي

أذكر ملك الساعات التي كنا نفصّلها في المذاكرة معاً وفي اللهو والمرح معاً

وقد أديت أولى امتحاناتي من أجل الالتحاق بكلية رادكليف في الفترة ما بين ٢٩ يوليو إلى ٣ يوليو من عام ١٨٩٧ . وكانت مواد الامتحان تشمل اللغة الألمانية واللغة الفرنسية واللغة اللاتينية واللغة الإنجليزية والتاريخ الإغريقي والروماني . وقد نجحت في كل هذه المواد وحصلت على درجات الشرف في اللغتين الألمانية والإنجليزية.

وربما كان من الأفضل أن أوضح للعراء الطريقة التي اتبعتها في أداء الامتحانات ، فقد كانت أوراق الأسئلة توضع في الساعة الثامنة في جامعة هارفارد ، فقوم رسول خاص بإحضارها إلى كلية رادكليف وكان لكن صالبة رقم جلوس خاص ، ورقم جنوسى مثلاً هو ٢٢٣ ، لكن نظراً لكوني مستخدم أنة كاتبة فقد كانت ورقتي مميزة ومعروفة . والطريف أنني كنت تؤدي الامتحان في عرفة مستقبلي لثلاث برعج ضحيج أتى الكاتبة البنات لأخبارات ويؤثر على مقدرتهن على الإجابة . واعتماد المسر جيمهان أن يقرأ على أسئلة لامتحانات باستخدام أبجدية لأيدى ، وكان يتولى حراسة الباب حارس خاص ليحول دون تعرضي للإزعاج

في اليوم الأول أديت امتحان اللغة الألمانية ، وقد جلس المسر

حياة مصمويل جونسون<sup>(٥)</sup> الناقد والكاتب الشهير في القرن الثامن عشر ، وقد شعرت بالأسف من أجل جونسون الذي كان وحيداً ومريضاً ، وأسعدتني حقاً النجاحات التي حققها هذا الرجل ووجدت نفسي أعرض عيني عن أخطائه أما ماكولي فلم أكن أبداً راثقة من أنه كان يقول الحقيقة ، ولم أكن أقبل مايقوله بنفس الموثوقية التي قلت بها حطت بيرث .

وفي مدرسة كمردج ظفرت ولأول مرة بصحبة بات في مش عمري قادرات على السمع والرؤية ، إذ كنت أعيش مع عدد منهم في واحد من أحسن البيوت الداخلية الملحقة بالمدرسة ، وقد اعتدت على مشاركتهم في بعض ألماهن . كما كما تقوم معاً برهاب صولة يتناقش أثناءها في درساتنا ونقرأ بصوت عال لموضوعات التي كانت تثير اهتمام . وقد تعلمت إحدى امتيات أبجدية . لأيدى مما جعل لأسسه سوليفان غير مضطرة دائم للاصطلاح مهمة . يحاطني بما كن يتناقش فيه من موضوعات

وفي الأعياد كانت والدتي وشقيقتي الصغيرة تقضيان الأجرات معاً وقد عرض استر جيمهان في كرم إلحاق أختي مندريد بالمدرسة في المدرسة ومن ثم مكثت لمندريد معي في كمردج ، وكان له ستة شهر بهيجة لانكاد بقرق ، ومن ذراعي سعادتي أن

(٥) . مصمويل جونسون Samuel Johnson ، أو الدكتور جونسون ، شاعر وبالد ومفصلي وكاتب صمعي إنجليزي شهير

جيلمان بحاسي وقرأ لي ورقة الامتحان فراءة سريعة أولاً ، ثم أخذ يقرأها جملة جملة وكنت أردد الكلمات بصوت مرتفع لكي يتأكد من فهمي الدقيق لكل ما يقصده . وكانت الأسئلة تتسم بالصعوبة إلى حد جعلني أشعر بالقلق وأنا أكتب إجاباتي على التي الكتابة . كما كنت نيت كان المسر جيلمان يتجهأني على يدي لكي يتسنى لي القيام به أراه ضرورياً من تعديلات وأريد أنؤكد الآن على أنني لم أسمع قط بمثل هذه المربا التي تمتعت بها في متحباتي الأخيرة في كلية رد كلف . فلا أحد من قبل يقرأ لي أوراق بعد أن أكتبها . ولم يكن لدى فرصة تصحيح أخطائي ما عدا أفرع من الامتحان مبكراً ، فحيث فقط كتب أصحح الأخطاء التي توسعي بدكرها في الوقت المتبقى وأدون ملاحظات حول تلك التصحيحات في نهاية ورقة الإجابة . وقد كنت قد حصلت في متحباتي الأولى على درجات أعلى مما في حالة الامتحانات النهائية ، فذلك راجع إلى سببين الأول أنني في الامتحانات النهائية لم يكن لدى من يقرأ لي أوراق الأسئلة ، والثاني أن امتحاناتي الأولى شملت موضوعات كنت أعرف بعض جوابها قبل درستي في مدرسة كمبردج . وبالصعق قم المسر جيلمان بإرسال أوراق الإجابة إلى المصححين ومعها تقرير يعيد بأنني - أنا صاحبة رقم التحلوس ٢٢٢ - قد فمت بكتابة الأوراق بنفسى . وهو إجراء روتيني يتعين اتباعه في مثل هذه الحالات .

وقد حرت بقية الامتحانات بنفس الطريقة ، وكانت جميعها سهلاً من الأول ، وأتذكر أنني في يوم امتحان اللغة اللاتسي جاء إليا مدرس تلك اللغة وأحزني بأنني نجحت فيها وقد شجعتني ذلك شجيعاً كسراً وجعلني أؤدي الامتحانات الثانية بصعوبات عالية واقتدر أكبر ، ومصيت أكتب بسرعة كبيرة وقلبي منغم بالسعادة

وحين بدأت عامي الثاني في مدرسة جيلمان كنت موفورة لأمل والطموح وعارمة على تحقيق النجاح ، لكن الأسابيع القلائل الأولى كانت مليئة بالصعوبات . وقد وافق المسر جيلمان على قيامي بدراسة الرياضيات بصغة أساسية في ذلك العام ، وكانت المواد المقررة هي الميريد ولحر والهندسة وللعان اليونانية واللاتسي . ومع تكرر الكثير من الكتب التي كنت بحاجة إليها من أجل المصى في تلك الدراسة قد طبعت بعد بطريقة بريل لكي أبدأ بها درستي ، ومن ناحية أخرى كانت الفصول التي التحقت بها مردحمة بالظالمات وكان من المستحيل على المعلمين أن يوليوني عناية خاصة لذلك اضطرت لأسة سوليفان إلى قراءة كل الكتب لي ، كما كانت أيضاً تهجى على يدي ما كان المعلمون يقولونه في الفصل ، وكان العمل يسدو في بعض الأحيان في عانة الصعوبة حتى بالنسبة للأسة سوليفان |

وكان لزاماً على أن يكتب دروس الجبر والهندسة في الفصل ،  
 وأن أقوم أيضاً بحل المسائل في حصر الفيزياء ، لكن هذا العمل  
 لم يكن ممكناً حتى فيما بشراء آلة كاتبة تعمل بطريقة برييل  
 ليسى بي أن أعيد قراءة ما كتبه بنفسى . ركت أستخدم هذه  
 آلة الكاتبة في كتابه الدروس وحل التمارين . وكانت هناك  
 مشكلة عريضة تتعلق بعلم الهندسة ، إذ لم يكن باستطاعتي رؤية  
 الرسوم الهندسية التي كان المصنوع يرسمها على السورة . ومن  
 ثم كانت طريقة الوحيدة التي تتيح لي التعرف على تلك  
 الأشكال تتمثل في تجهيز سادح عملية لها على قطعة من  
 القماش باستخدام أسلاك مستقيمة وأخرى مقوسة <sup>(٦)</sup> ، وكان  
 يتعين على أن أحفظ دائماً في ذهني بقدر كبير من التفصيل  
 عن كل مسألة . وكنت في بعض الأحيان أفقد كل شجاعتي ،  
 وأعسر عن مشاعري بطريقة عصبية يؤسفني أن أتذكرها الآن  
 خصوصاً أن تلك العلاقات كانت بحسب بعد ذلك صد لآسة  
 سوفيغان بينما هي هي وقع الأمر الشخص الوحيد من بين كل

٦) جاءت هيلين لي هذا الأسلوب لتحل الأشكال التوضيحية الهندسية من  
 أشكال مرتبة إلى الأشكال الملوحة ، يمكن تمثيلها باليد وتكوين فكرة  
 عنها . لكن هذا الأسلوب لم يكن كافياً بالصع للإحاطة الكاملة بالشكل كما  
 يحدث في حالة لرؤية . فالشخص البصر يستطيع في نظرة واحدة معرفة  
 العلاقات بين الأشلاع والرواء والالواس إلخ أما هيلين فلم يكن بوسعها  
 إلا أن تحرك يدها من جزء لآخر من أجزاء الشكل الجسم لتكون في النهاية فكرة  
 صعبة ومقوسة عن طبيعة هذا الشكل والعلاقات بين أجزائه

الأصدقاء الطيبين الذي ساعدني حقاً على فهم أمور الدنيا وطبائع  
 الأشياء

ونشيتا فشيئا بدأت الصعوبات تتبدد وتختفي ، إذ وصلت كتيبي  
 المطبوعة بطريقة برييل ، وبدأت أستخدم دروسي بقدر أكبر من  
 الثقة ، لكن الجبر والهندسة بقيا العلمين الوحيديين اللذين يصعب  
 علي فهمهما . وكما سبق أن ذكرت فأنا لست برعة في  
 الرياضيات ، كما أن الجوانب المختلفة لتلك العلوم لم تشرح لي  
 تماماً بالطريقة التي كنت أتمناها ، وكانت الأشكال التوضيحية  
 الخاصة بالهندسة تمثل صعوبة كبيرة بالنسبة لي لأنه لم يكن  
 بوسعني رؤية تناسب والعلاقات لمخلفة بين أجزاء الشكل  
 الهندسي ، حتى حين كنت أقوم بتفليله بقطع من السلك على  
 القماش .

وكنت في سبيلي إلى فهم كل تلك الصعوبات عندما وقع  
 حدث قلب كل شيء رأساً على عقب ، فقبل أن تصل كتيبي  
 مباشرة أحير لمستر حيلمان الآسة سوفيغان أنني أتقدم بصعوبة  
 ضديده ، وقام برعم احتجاجي بتخفيض عدد الحصص التي  
 ألتفاه . وكما في البداية قد اتفقنا على أن ألتقي خمس سنوات  
 من الدراسة للتأهل للجامعة إذا لم ذلك ، لكن تخاحي في  
 امتحاناتي الأولى أربص بجلاء أن باستطاعتي إيجاز ذلك التأهل في

عامين فقط ، وقد وفق المستر جيلمان على ذلك أول الأمر ، لكنه عاد بعد أن أدرك صعوبة الدراسة بالنسبة لى فأصر على أنى أتقدم بصعوبة شديدة وعلى أنه يتعين على أن أمكث فى مدرسته ثلاثة أعوام أخرى ، ولم يرقى هذا القرار نظراً لشدة رعتى فى الالتحاق بالجامعة مع طلبة صفى .

وفى يوم ١٧ نوفمبر لم أكن بحالة صحية طيبة ولم أذهب إلى المدرسة ، فإد بالمستر جيلمان يقول لى بى عيالى هذا أعتبر مقطعة عن الدراسة ، ويقوم بتعبير خطة دراسى على نحو جعل من غير الممكن أن أؤدى امتحانى النهائية مع طلبة صفى وفى نهاية الأمر صطر الخلاف فى رأى بين الآسة سوليفمان والمستر جيلمان ووال بى إلى إنهاء التحاقى بمدرسة كمبريدج نا وحتى منى . وقد فى ذلك الوقت أن أواصل درسى بمساعدة مدرس خاص هو المستر «ميرتوس» كيث من كمبريدج . وأمىب أنا والآسة سوليفمان بقية الشتاء مع بعض الأصدقاء الذين كانوا يعيشون فى مدينة صغيرة اسمها «ريتهام» تقع على بعد ٤٠ كيلو متراً من بوسطن وقد واضب المستر كيث فى لفته من فبراير بى يونيو عام ١٨٩٨ على المحى بى ريتهام مرتين أسبوعياً وأحد بلقى عى دروساً فى الحبر والهندسة واللغتين السويدية واللاتية ، وكانت لآسة سوليفمان تترجم لى الدروس أولاً بأول

وفى أكتوبر من عام ١٨٩٨ عدنا إلى بوسطن ، وواصل المسر كيث طوال ثمانية أشهر دروسه لى بمعدل خمس مرات أسبوعياً ، كانت مدة كل درس حوالى ساعة ، وقد اعتاد أن يشرح لى فى كل حصص مالم أهمه فى الدرس السابق ، ثم يلقي عى درساً جديداً . وعند الانتهاء من الدرس كان يأخذ معى إلى بيته يمارس لغة اليونانية التى كتبتها خلال الأسبوع عى التى الكاتبة ويصححها تصحيحاً دقيقاً ثم يعيدها لى .

على هذا النهج وصلت المسير بدون بقطاع فى رحلة لاستعداد لدخول الجامعة ، والظريف فى الأمر أى وجدت تلقى دروس بهذه الطريقة أسراً وأكثر بهجة بالنسبة لى من تلقبها فى عضول لمدرسة التقيدية ! وبالضبح لم يكن هناك داع للعجبة ، كما أنه لم يقع أى اضطراب فى مسار الدراسة على هذا الموال . كان لدى المستر كيث فمسحة من الوقت ليشرح لى مالم أكن فهمه ، مما جعلى أحقق لمزيد من التقدم وأؤدى أداء دراسياً أفضل مما كان عليه الحال فى المدرسة ! لكسى كنت ما أول أجد رياضيات أكثر صعوبة من سائر مواد الدراسة وأتمنى لو كان حبر والهندسة أكثر سهولة ونو بمقدار نصف سهولة اللغات والأدب ! ومع ذلك يمكنى القول بأن المستر كيث جعل

الرياضيات مثيرة لاهتمامي بدرجة أكبر ونجح في جعلي أفهمها  
 بالقدر المناسب . وقد حافظ على انتماش عقلي ونوحيه ، وقام  
 بتدريسه علي كيفية الاستبطان في تبصّر وروية بدلاً من القصر  
 بالتعكير قفريات متعلقة لاتوصل العقل إلى تحقيق أية نتيجة علي  
 الإطلاق . وبدا هذا المعلم دائماً رقيقاً معي وعطوفاً علي . مع إني  
 كنت أحياناً أهدى من البلاءة قدراً كافياً لاعتبار صبر أي  
 شخص !

A	⠠	N	⠠
B	⠠	O	⠠
C	⠠	P	⠠
D	⠠	Q	⠠
E	⠠	R	⠠
F	⠠	S	⠠
G	⠠	T	⠠
H	⠠	U	⠠
I	⠠	V	⠠
J	⠠	W	⠠
K	⠠	X	⠠
L	⠠	Y	⠠
M	⠠	Z	⠠

حروف برايل للمكفوفين مكون  
 من نقاط بارزة علي الورق ويمكن  
 للمكفوف القراءة عن طريق  
 لمسها بأصبعه

وفي يومى ٢٩/٣٠ يومية من عام ١٨٩٩ أدت امتحاناتي  
 النهائية بعرض الالتحاق بكلية رادكليف ، وشملت الامتحانات  
 اللغتين اليونانية واللاتينية وعلمى الهندسة والجبر . ولم تسمح  
 إدارة الكلية للآنسة سوليشان بأن تقرأ لى أوراق الامتحانات ، إذ  
 بدلاً من ذلك قام أحد المعلمين بمؤسة بركنر للمكفوفين بنسخ  
 الامتحانات بطريقة برايل خصيصاً من أجلي ، ولم أكن أعرف هذا  
 المعلم . كما أنه كان ممنوعاً من التحدث معي إلا عن طريق الكتابة  
 بطريقة برايل

وكانت الكتابة بطريقة برايل وافية بالعرض تماماً فيما يتعلق  
 بالامتحانات للعبارة ، لكن لم تكن كذلك بالنسبة لامتحانات  
 الرياضيات . وكنت دائماً أستخدم فى دراسة الجبر النمط  
 الإنجليزية من طريقة برايل . لكنى قبل الامتحانات بيومين  
 اكتشفت أن طريقة برايل الأمريكية فى سبيلها للاستخدام ، ومن  
 ثم صار لزاماً عليّ أن أتعلم نظاماً جديداً للكتابة فى السويغات  
 الأخيرة . وترتب عني ذلك إصابتي بالارتباك أثناء تأديتي  
 للامتحان ، بل إني فى واقع الأمر لست متأكدة تماماً لأن من  
 أنى كنت أقرأ الإشارات والعلامات قراءة صحيحة ! وكنت معتادة  
 علي أن يتجهج لى شخص ما مسائل الهندسة علي يدي ، ولم

أكثر متادة في الوقت ذاته على كتابة إجاباتي في الامتحانات على آلى الكاتبة .. بل كنت دائماً أتوصل إلى الحلول إما بكتابتها بطريقة بريـل أو من خلال التفكير الدائر في ذهني إلا أنني برغم صعوبة الامتحانات الشديدة بالنسبة لى كانت معروياتى مرتفعة وتولدت لدى الصناعه بألى تمكنت حقاً من قهر كل الصعوبات . وبالفعل تحقق أمني العظيم في نهاية المطاف وأصبح بمقدورى الالتحاق بكلية رادكليف !

\*\*\*\*

## الفصل العاشر

### استقرار

رأيتُ أخيراً على أنه يختص بي أن أدرس عاماً آخر تحت إشراف المستر كيث قبل التحاقى بكلية ، ولهذا لم يستحق حلمى فى الذهاب إلى الجامعة فعلاً إلا بحلول حريف عام ١٩٠٠ . وماريت طبعاً أذكر يومى الأول فى كلية رادكليف ، إذ كان يوماً مفعماً بالإثارة بالنسبة لى لأسى ظلمت أنطلع إليه على مدى عدة سنوات من عمرى .

كانت بدخلى قوة هائلة تدفعنى وتجعلنى راغبة فى موجهه ذات الصعاب والاختبارات التى يواجهها عادة أولئك القادرون على السمع ولمصر وقد نصحتى أصدقائى بألا أحاول ذلك ، بل إنه حتى لمبى الذى بين صوعى كان يحول فى بعض الأحيان قناعى بالتحدى عن تلك الرغبة الملحة . كتب أدرك تمام لإدراك ننى فى سببى لمواجهة أمر ليس اليسير ، ومن ثم عزمت على قهر كل الصعاب ، ورمح فى نفسى الشعور بألى قدرة على التعلم بعض القدر الذى يمكن أن يتعلم به أى شخص قادر على الرؤية والسمع ، فكل العوائق ببى وبسهم أن ظروفى كانت تحتم علىّ تخصيص المعرفة بطريقة محلقة وحاسرى شعور بألى فى الكلية يمكن أن أصبح وليقة الصلة بالكثير من العتبات الالانى



يفكرون ويأضلن ويبدن مشاعر الحب والأمل مثلى ١

شرعت في دراستي بجهد وشعب ، وكنت في ذلك الوقت أرى عالماً يفتتح أمامي .. عالماً مدهياً بالجمال وسياً بالصياء ، وشعرت أن باستطاعتي تعلم كل شيء ، اعتقاداً مني بأنه حقيق بي في دينا العقل والفكر أن أكون حرة طليقة كأي شخص آخر ، وأن ما تخفل به تلك الدنيا من المشاهد المتنوعة والطرائف لمشابة وألوان السعادة والتعاسة سوف تعينني حصيماً على تفهم طبيعة العالم الحقيقي المحيط بي . بين يدي العصور الدراسية بدت لي مأهولة بأرواح العظماء والحكماء ، وبدأ لي الأساندة متمسكة برجاحة العقل والحكمة .

لكمني سرعان ما اكتشفت أن الكلية ليست هي تماماً الطريق الذي تصوره أحماسي ، شيئاً مشابهاً مصيت اكتشف أن ثمة أشياء غير طيبة تكنف البدهاب إلى الكلية ؛ فعني سبيل المثال لم يكن لدى ما يكفي من الوقت . فأنا قد عودت عني أن يتوفر لدى قدر كاف من الوقت لأفكر ، أو لأحس على انفراد في المساء وأحلم ، أو لأهيم مع إحدى لفصائد التي أفصلها لكي في الكلية لم أكن أجد وقتاً لكل هذا ؛ فلهذا ذهبت إلى الكلية ليتعلم على ما يبدو لا ليفكر ويسأل . وأمرء عندما يذهب إلى الجامعة يترك وراءه الكتب والحيال ومتعة الانفراد بداته . وقد عودت في ذلك

الوقت على إراحة نفسي بمكرة أني أقوم بتحصيل الثروات الآن لكي استحدثها مستقبلاً .. لكنني في واقع الأمر كنت أفضل السعادة والبهجة في الوقت الحاضر على أية ثروات يمكن أن أمتلكها في المستقبل ٢

تمثلت مواد الدراسة في العام الأول في اللغتين الفرنسية والألمانية ، والتاريخ ، والإنشاء الإنجليزي والأدب الإنجليزي ، ومعبت في ذلك العام أقرأ الكثير من أعمال المؤلفين الفرنسيين والألمان ، كما درست في أسمراس سريع مجمل الفترة التاريخية الممتدة من سقوط الإمبراطورية الرومانية<sup>(١)</sup> إلى القرن الثامن عشر ، وفي إطار مادة الأدب الإنجليزي درست الشاعر «مبلتون»<sup>(٢)</sup>

كثيراً ما سألتني الناس كيف أتغلب على الصعوبات التي اعترضت مسار دراستي في الكلية . وهأنذا أجيب : فمن الناحية العملية كنت بالطمع وحيدة في الفصل وكان الأستاذ بعيداً عني

(١) سقطت الإمبراطورية الرومانية عندما أطاح الزعيم القبلي الجرمانى «أودراسرا Odacer» بأعمر الأباطرة الرومان وأعلن نفسه ملكاً على إيطاليا عام ٤٧٦م . وهذا الحدث يعد بداية حقبة التاريخ الوسيط الذي ينتهي باحتلال العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣م ، ليبدأ التاريخ الحديث الذي ينتهي في القرن الخامس عشر لو على وجه الدقة في عام ١٧٨٩م (وهو عام وقوع الثورة الفرنسية) وبعدة جوانب التاريخ والمعاصر إلى يومنا هذا . وبذلك تكون هيئ قد درست في عامها الجامعي الأول التاريخ الوسيط والحديث معاً

(٢) عاش الشاعر الإنجليزي (مبلتون Milton) بين عامي ١٦٠٨ - ١٦٧٤ . وقد كتب بصره واضطرب إلى إملاء أعماله الرئيسية على الغير

كل البعد كما لو كان يتحدث إلى عن طريق الهاتف (التليفون) وكانت المحاضرات تترجم لى بالهواء على يدي بأسرع ما يمكن ، ومن ثم كانت الشخصية الداتية بالأستاذ تغيب على عادة بحكم عدم تواصل<sup>(٣)</sup> معها ، والمحاضرات كانت تترجم لى بالطريقة التى يمكنى فهمها بها بسرعة بالغة ، والأفكار كانت تتدافع إلى رأسى كما تتدافع الكلاب حين نظارد أرباباً . فهى فى بعض الأحيان لاتمنطبع ملاحظته ! لكن لست أعتقد أسى من هذه الناحية كنت أسوأ حالا من سائر الفتيات اللاتى كن يذون المحاضرات . حين يكون العقل مشغولاً بعملية الرؤية وملاحظة الكتابة على الورق أسرع ما يمكن فلا أعتقد أن امرء حينئذ يكون بوسعها أن يولى قدرأ أكبر من الاهتمام بالموضوع أربالطريقة التى يقدم بها . وأنا صفة خاصة به يكن بمقدورى الكتابة أثناء المحاضرات لأن يدي كانتا مشغولتين بعملية السمع<sup>(٤)</sup> ! وعادة كنت أقوم بكتابه ما يمكنى تذكره من بصوص المحاضرات حين أعود إلى المنزل ، كما كنت أقوم بكتابة حلول المبرين ومواضيع

(٣) ، لم تكن هيلين ترى الأستاذ المحاضر بوسمعه ، والمحاضرة كانت تترجم لها على يدها بسرعة كبيرة لاتسمح لها بالمعرف على خصائص شخصية الأستاذ وأسلوبه فى التعبير والإلقاء . فكانه بالنسبة لها غير موجود على الإطلاق

(٤) ، بينما الأستاذ يلقى محاضراته كان شخص ما - غالباً المعلمة آن سوليفان يقوم بترجمتها لهيلين على يديها باستخدام البجدية الأهدى . فكان هيلين كانت تسمع يديها !

الإشياء وإجابات الاحتضرات والامتحانات على ألتى الكتابة مما كان يتيح للأستاذ أن يكتشفوا ذوق أدبى صغرى نى لأعرف سوى القليل . وكنت أستخدم آلة كتابة من نوع يمكن تعبیر بمط حروفه ، وكان لدى حروف يونانية وعلامات رموز رياضية ومجموعة من الحروف مرودة بالسرات الفرنسية ، وبذون مثل هذه الآله الكتابة شك أنه كان بمقدورى المذهب إلى الكلية أصلاً<sup>١</sup>

ولم يكن متواظراً فى طبعات برايل سوى القليل جداً من الكتب التى كنت بحاجة إليها فى مجالات الدراسة المختلفة ، ومن ثم لم يكن تنسى لى معرفة محتوى الكتب البقية إلا عن طريق قيام شخص بتهجيتها لى على يدي ، ولهذا السبب داته كنت بحاجة إلى وقت أكبر فى استذكار دروسى مما تحتاج إليه زميلانى الأحرىاب . وفى بعض الأحيان كنت أشعر بحزن شديد على حالى حين أجد نفسى مضطرة لإتفاق ساعات طوائى فى قراءة عدد قليل من الفصول ، بسما كانت الفتيات الأحرىاب يعمن بالصحك والمرح غير بعيد على . ومع ذلك حرصت دائماً على تسديد تعاضتى بالصحك منها لأنى كنت أدرك كى الإدراك أن كل امرئ راعب فى تحصيل المعرفة الحقيقية لابد من أن تكون لديه من الصعوبات مايتعين عليه مواجهتها وحده . فليس هناك طريق سهل مبدى إلى المعرفة ، بل الطريق إليها وعمر متحدر ويسقى على

أن أسلفه بكل مالى من مقدرة وبأفضل طريقة أستطيعها . كنت كثيراً ما أنزلنى عاتده إلى الراء ، وكنت أسقط على الأرض أو أتوقف عن التقدم ، وكنت أتمش فجأة فى صموات غير متوقعة ، بل وكنت فى بعض الأحيان أنقلب إلى حدة المراح وسوء الطبع ، لكنى فى جميع الأحوال كنت مأكب أن أستعيد سكينتى وأتمالك نفسى فأخرج لتسير بعض الوقت ليتبدد ما بهى من الإحباط بعض الشئ وأشعر بشجاعتى ترتد إلى وأسترد شغفى ودأبى فأعاود الصعود وأبدأ فى رؤية الأفق الرحب .. ولم أكن وحيدة دائماً فى نوبات الصال هذه ، فالأصدقاء الطيبون كانوا إلى جانبى يمشونى ، ويوفرون لى الكثير من الكتب التى أحتاج إليها مطبوعة بطريقة برايل ، وكان اهتمامهم بى ورعايتهم لى يسديان لى من العون والتشجيع أكثر مما كان يوسعهم أن يتصوروا .

وفى العام الماضى (٥٠) - وهو ثانى أعوامى فى كلية رادكليف - مصيت أدرس الإنشاء الإيجديرى والأدب الإيجيزى والضم الحكومية فى أمريكا وأوروبا ، وكذلك قصائد وأعمال فى اللغة اللاتينية . وكانت أكثر الدروس إضفاء للسرور على قلبى هى دروس الإنشاء ، وهى جذابة رائعة ، وكانت المحاضرات دائماً مثيرة (٥) كنبت هيلين قصة حياتها التى بن يدي القارى وهى لابرال طالبة فى كلية رادكليف

للعباية ومخاطبة للذكاء ، وكان أستاذ امادة - وهو المستر تشارلز تاويند كويلاند - حريصاً على حفز الطلاب على إدراك وتذوق عدوية وروعة الأدب ، وكنا فى حصص الأدب ننهل من جمال التعبير وروعة الأسلوب لدى كبار الكتاب ودهما أية شروح إضافية لاصرورة لها . فأنت تقرأ لتستمع بأفكارهم السامية ، ثم تعود إلى مرلك والشعور بخامرك بأملك قد ربوت إلى الكمال ذاته

وكان ذلك العام أسعد الأعوام بالنسبة لى لأنى توفرت فيه على دراسة مواد محببة كثيرة إلى نفسى هى الاقتصاد ، والأدب الإليراشى (٦) ، وشكسبير الذى كان يلقى علينا دروسه البروفيسور جورج ل . ليتردج ، وتاريخ الفلسفة الذى كان يلقى علينا دروسه البروفيسور جوزيا رويس . ودروس الفلسفة ذات أهمية خاصة لأن المرء يتعلم منها كيف يتفهم الأساليب التى كان الدس يفكرون بها فى الماضى وكيف يتعاطف معها ، وبعد دراستها يصبح المرء على ألفة مع أساليب التفكير التى كانت قبل ذلك تبدو غريبة عليه وليس لها ما يبررها .

ومع ذلك فالكلية ليست المدينة الفاضلة للمعقل كما كنت أتصور من قبل ؛ ففىها لا يلتقى المرء بالمعلماء والحكماء وجهاً (٦) الأدب الإليراشى - الأدب الإيجليرى فى عصر الملكة إليراش الأولى ، التى حكمت إنجلترا بين عامى ١٥٥٨ - ١٦٠٣ م ، وبعد عصرها من أزهى عهود الأدب الإيجليرى شبه شهر شكسبير

لوجه ، ولا يستشعر فيهم لمسة الحياة .. صحيح أنهم موجودون في الكلية ، لكنه وجود مسطّ يبدون من حلاله في حالة جفاف وموت ، حتى أنه يتعين علينا فحص كل منهم على حدة وفحصه بدقة قبل أن ينسى لما التأكد من أن الذي أمامنا هو نص لكتاب عظيم لا مجرد تقليد بارع . ويدلّ على أن الكثير من المدرسين المتعتمدين يسون أن متعتنا الحقيقية بالأعمال الأدبية العظيمة تعتمد على تعاطفنا مع الكاتب أكثر مما تعتمد على تفهمنا لما يكتب ، وأن من الصعب علينا أن نتذكر الشروح المعقدة لهؤلاء المدرسين التي يسقطها لعقل عدة كما يسقط عصن الشجرة ثمره باصحة رطبة . ونحن يمكننا معرفة كل شيء عن الرمرة وعملية نموها دون أن يرتفع إلى مستوى إدراك وتقليد جمال وردة تلك الرمرة حين نراها في فيض من أشعة الشمس وكنت مراراً وتكراراً أسأل نفسي بصر نافذة الماد يتعين على الانكباب على تلك الشروح ، النظريات ؟ : إنها تخلق في عقلي هيا وهماك كأنها طيور عمياء تضرب الهواء بأجحتها دون أن يكون بها هدف محدد . ولست أقول ذلك على سبيل الاعتراض على الإحاطة الشاملة بالكاتب الشهيرة التي درسناها ، فما أعترض عليه فقط هو تلك الشروح لنقدية المسهبة التي لا تعلمنا سوى شيء واحد أن هناك من الآراء المختلفة بقدر ما هناك من بشر ومع ذلك كان الأمر يختلف كثيراً حسبما يقوم أستاذ قدير كالبروفيسور

كينزدرج بشرح ما يكتبه هؤلاء الجهادة ، فالأمر يبدو حيثخذ وكان شخصاً ضريباً قد ارتد إليه بصره ، لأننا حين كان البروفيسور يلقي علينا محاضراته كنا نشعر وكأن شكيبير قد عاد ياذن الله إلى الحياة !

كانت تجني على أوقات أشعر فيها بالعربة في سيات نصف ما كان معروصاً على أن أتعلّمه ، إذ أعتقد أن من المستحيل قراءة أربعة أو خمسة كتب في يوم واحد ، وبلغات مختلفة وفي موضوعات مختلفة بدون أن أدرك الحكمة الماثلة وراء القيام بكل هذه لقرايات ، فأنره حين يقرأ على عجلة وفي حالة من العصبية والارتباك دون أن يفكر في شيء آخر غير الاختبارات والامتحانات التحريرية ، يصبح ذهنه مثقلاً بقدر صحاح من المعلومات التي لا تبدو أكثر من مجرد حشو لا طائل من ورائه ولا فائدة ، وكان عقلي في ذلك الوقت حافلاً بحشد هائل من الأشياء المختلفة إلى حد لم أكن معه أملك القدرة على تنظيم معلوماتي والتسليم بينها ، وكنت كلما حظرت نحو المثلثة العشر<sup>(٧)</sup> شعرت كما لو أن الأرواح الشريرة تعاردي وتتعقب خطاي .

وكانت الامتحانات من دون شك تمثل الجانب الأصعب من حياتي الجامعية ، فبالرغم من كوني واجهتها لعدد كبير من<sup>(٧)</sup> لقدسة كلما خطت نحو التفكير الليم والنايل بعد هضم واستيعاب المفردات المناسب من المعلومات

المرات وتمكنت في كل مرة من قهرها ، فقد كانت نهض من جديد وتتحداني بالوعيد حتى نهضت نفسي وتغونني شجاعتى وأنت حين تواجه امتحاناً ، فإنك تقضى الأيام السابقة للامتحان في حشو ذهنك بأكبر قدر ممكن من الحقائق والتواريخ . قدر كبير للغاية إلى حد تتأبك معه الرغبة في أن تصبح أنت ومامعك من الكتب في فرار ممكن تحت سطح البحر! وفي نهاية المطاف تجيء ساعة المزع وتكون محطوماً حقاً حين تشر بفكك مهبطاً للامتحان وبأنك قادر على تذكر المعلومات التي تحتاج إليها في الوقت نفسه الذي تحتاج إليها فيه .

وأكثر ما يشير الحق والعبط أن يبدو ذاكرتك وقد نما لها جراحان لتطير بهد بعيداً في ذات اللحظة التي تكون فيها في أشد الحاجة إليها ، فالحقائق التي تتعلمها وتستذكرها بالجهد الجهد عالياً ما تقترن في حقلك جريمة لخيانة حينما تهرب منك في الوقت الذي تكون فيه في حاجة ماسة إليها

قد تجد نفسك في الامتحان أمام سؤال كالتالى أكتب مقالاً مختصراً عن «هــ» ونجاراته .بالعجب «هــ» ؟ ومن يكون هــ هذا ؟ وماهى إنجازاته ؟ .. ويرغم المفاجأة فالاسم يبدو لك مألوفاً بعض الشيء وإن كنت لم تدرك لأول وهلة من يكون افتأخذ في

البحث والتفتيش في كل الحقائق التاريخية التي تعرفها ، ويصبح الأمر أشبه بالبحث في سلة مليئة بقصاصات من القماش من أجل الحصول على قصاصة صغيرة من الحرير تريدها .ولاشك في أنك تكون واقفاً في الوقت ذاته من أن المعلومة موجودة في مكان ما من الجهة العلوية لذهبك ، فأنت قد رأيتها هناك منذ يوم واحد فقط حين كنت تبحث عن شيء آخر لكن أين هي الآن؟ وتشرع في جرد كل ما في ذهنك من معلومات صغيرة : المارك ، الحروب ، الثورات ، الأنظمة الحكومية . لكن أين يوجد ذلك المدعو «هــ» ؟ وتجد نفسك مدعشاً للغاية من أن كل الأشياء التي تعرفها لا وجود لها على ورقة الأسئلة! . وفي نهاية المطاف ، وبدافع من اليأس ، تتناول السلة وتقسب كل ما بها لتجد ذلك الرجل «هــ» قابلاً في أحد الأركان ومستغرقاً في تفكيره الخاص دون أن يكون لديه أدنى فكرة عن ذلك القدر الكبير من الإرعاج الذي سببه لك !

وهي هذا الوقت بالذات يطلق صوت المراقب ليخطر بك بأن ومن الامتحان قد انقضى وحين موعد تسليم ورقة الإجابة .. ويكمل مشاعر اليأس والاشمئزاز فتترك ورقة الإجابة وتعود إلى منزلك ورأسك ملئاً بخطط ثورية تهدف إلى القضاء على حق الأستاذة

فى وضع أسئلة لا يقتنع بها المتحنون !

تخطر ببالي الآن فكرة أن ماقلته خلال الصمحتين أو الثلاث السابقة سوف يثير صحك الناس مى ، لكن كلماتى تلك تصف فى حقيقة الأمر ويكن ثقة ذلك العالم الحافل بالأفكار المتراحمة والمثداهمة مى تسارع ، الذى أعيش فيه ولا أملك تسديل واقعه وماقلته إنما هو بالعص أسلوى فى التعبير عن حقيقة أن أفكارى عن الكلية قد تعيرت اصحى كان وجودى بكلية رادكليف مجرد أمل براودى وأمر محض لمستفل ، كان ذلك الوجود يبدو لى صرباً من الخيال كأنه حلم ساحر جميل ، والآن رغم أن التحاقى بالكلية فقد حصلت على الراتمة تلك ، فقد قدّر لى أن أتعلم الكثير من الأشياء التى لم يكن من الميسور أن أعرفها بولا إقدامى على تجربة الالتحاق بالجامعة ، ومن تلك المعارف «علم الصبر» الثمين الذى يعتمد ضرورة التعامل مع التصميم على نفس الحو الذى تتعامل به مع نزهة فى الريف ، يسعى لنا أن نتروى وألا نحصى على عجل ، وأن نفتح عقولنا من أجل تلقى المؤثرات من كل نوع . فمثل هذه المعرفة تثرى الفوس بفكر عميق وقد قال أحد الحكماء «المعرفة قوة» ، أما بالنسبة لى فإن المعرفة بهجة وسعادة لأنك حين تكون لديك المعرفة تصبح قادراً على التمييز بين ماهو حقيقى وماهو رائف ، وبين ماهو سام

وماهو وصيع . وحين يكون المرء على دراية بأفكار ومآثر الناس عبر مختلف عصور التاريخ ومختلف المواقع الجغرافية فإنه يستشعر التعاطف والقربى نحو الإنسان على مر القرون . وعلى التقيض من ذلك يكون المرء قد أصيب بالصمم تجاه الحياة بأسرها حين يفقد الإحساس بأن هناك شيئاً سامياً وراء كل ما يحاول الإنسان أن يفعله ويسعى إلى تحقيقه ..

\*\*\*\*\*

## الفصل الحادى عشر

رويت

لكم الكثير عن أحداث حياتى ، لكننى حتى الآن لم أذكر لكم إلى أى حد اعتمد على الكتب فى مسيرة حياتى ، ليس فقط من أجل المتعة واكتساب الحكمة وبعد الرؤية وهو ما تضيفه الكتب على كل من يقرأها ، ولكن أيضاً لكونها لمصدر الوحيد المتوافر للحصول على المعلومات التى يمكن للأخريين تخصيصها عن طريق أعيهم وأبنهم . فالكتب بحق قد لعبت فى تعليمى دوراً كبيراً للغاية أكثر مما تلعب عادة فى تعليم الآخرين . بذلك سأحاول عبر الصفحات التالية أن أستعيد مع أصدقائى القراء ذكريات اقراءة اثناء من الوقت الذى شرعت فيه فى قراءة الكتب لأول مرة فى حياتى

قرأت أول قصة كامله فى حياتى فى شهر مايو من عام ١٨٨٧ وكنت وقتها فى السابعة من عمري ، وبعد ذلك اليوم وحتى الآن داومت على قراءه كل مايقع بين يدي من كتب . وكما ذكرت قبلاً فإننى لم أكن أستخدم دروسى بانتظام خلال السنوات الأولى من شروعى فى التعليم ، ولم أكن أيضاً أتبع فى قراءتى أية قواعد محددة ، ففى أول الأمر كان لدى بعض كتب المطالعة مطبوعة بالحروف البارزة ( حروف برايل ) ، وهذه كانت عبارة عن كتب

للمبتدئين قوامها مجموعة من قصص للأطفال وكتاب عن الأرض اسمه « عالمنا » وأعتقد أن هذا هو كل ما مالتك ، لكننى كنت أقرأ تلك الكتب وأعاود قراءتها مرة إثر مرة إلى حد صارت معه الكلمات مطموسة غير واضحة المعالم على السطح الذى حال بينى وبين فهمها . وفى بعض الأحيان كانت الأنسة سوليفان تقرأ لى وتتهجى على يدي القصص القصيرة والقصائد التى كانت نعم أن باستطاعتى فهمها ، لكننى كنت أفضل أن أقرأ بنفسى لأننى كنت أحب أن أعاود مررت ومرات قراءة الموضوعات التى أسعد بها .

أما بداية انصلاقى وتوسعى فى القراءة فتعود إلى فترة زيارتنا الأولى لمدينة بوسطن ، إذ كان مسموحاً لى أن ألقى جزءاً من كل يوم فى مكتبة مؤسسة بركنر للمكفوفين وكنت أتقل بين دوايب الكتب وأتلقى منها كل كتاب يثير اهتمامى ، ثم أعكف على انقراءة بشغف حتى برعم أننى كنت فى بعض الأحيان لا أفهم سوى كلمة واحدة أو كلمتين فى كل صفحة . كانت الكلمات ذاتها تثير اهتمامى ، ولم أكن أبذل أية محاولات واعية لذكر ماكتب أقرأ ، لكن من الواضح أن تلك القراءات كان لها تأثيرها عني ، فالكلمات والجمل الكاملة كانت تبقي فى ذاكرتى حتى لو لم أكن أفهم معانيها . وبعد ذلك حينما بدأت فى تعلم الحديث والكتابة كنت أستخدم تلك الكلمات والجمل



بصوره طبيعيه إلى حد كان أصدقاتي يدهشون معه من وفرة  
 حصينة الكلمات التي اكتسبتها ، ولابد أسي قرأ أجراً من  
 الكثير من الكتب ، ولدي ما يدعوني للاعتقاد أنني كنت في تلك  
 الأيام المبكرة لا أكمل أبداً قراءة أى شيء ، وكذلك عدداً كبيراً  
 من القصائد برع أنى به أفهم منها إلا أقل القليل وبعد ذلك  
 وقعت على كتاب « اللورد فونتلروي الصغير » الذى كان أول  
 كتاب على حاسب من الأهمية أقرأه بهمه حقيقى .

وفى أحد الأيام وجدتى الانسة سوليمان قابعة فى أحد أركان  
 المكتبة أقرأ كتاب « الرسالة الرمزية » وكنت وقتها فى حوالى  
 الثامنة من عمرى ، وأذكر أنها سألتى ما إذا كتب أحسب « بيرل »  
 وهى الفتاة الصغيرة فى تلك العصة ، كما أذكر أيضاً أنها راحت  
 تشرح لى معانى بعض الكلمات التى لم أفهمها ، ثم أخبرتنى أن  
 لديها قصة جميلة تدور أحداثها عن ولد صغير وعبرت لى عن  
 ثقته فى نسي سآحبها أكثر من قصة « الرسالة القمرية » كان  
 عنوان القصة « اللورد فونتلروي الصغير » ووعدتنى الانسة سوليمان  
 بأن تقرأها لى فى الصيف السالى ، لكننا لم نبدأ قراءة القصة إلا  
 فى شهر أغسطس وكانت الأسابيع الأولى من إقامتى على  
 شاطئ « اسحر مليئة بالاكشافات والإشارة إلى حد أننى سبت معه  
 وجود الكتب ، وقد ذهبت معلمتى لزيارة بعض الأصدقاء فى

بوسطن وتركتنى لوقت قصير ، وحين عادت الانسة سوليمان كان  
 أول شيء فعلته تقريباً هو البدء بقراءة قصة « اللورد فونتلروي  
 الصغير » ، ومارلت أذكر بوصوح الوقت والمكان الذى قرأنا فيه  
 القصص الأولى من كتاب الأطفال الشهير هذا .. كان ذلك فى  
 عصر يوم دافئ من أيام شهر أغسطس ، وكنا نجلس معاً فى مقعد  
 متأرجح بين شجرتى صرير غير بعيد عن المنزل ، وقد أسرعنا  
 يومها بالفراخ من غسل الأصباغ عقب العشاء لكنى نوفر شطراً  
 كبيراً من وقت العصر لقراءة القصة وببما كنا نهرغ فى طريق  
 بين الأعشاب الطويلة متجهين للمقعد الموجود خارج المنزل ،  
 يحشرات الحبوب تتفانر حولنا<sup>(١)</sup> وتتعلق بملابسنا ، وأذكر أن  
 معلمتى أصرت على التقاط تلك الحشرات جميعها والتحصن  
 منها قبل أن يجلس الأمر الذى تراءى لى أنه نصيب لوقت  
 وكب المقعد معطى بأوراق الصنوبر الإبرية لأنه لم يكن مستخدماً  
 طوال الوقت الذى قضته معلمتى بعيداً ، وكانت أسبغة الشمس  
 الدافئة تسطع على أشجار الصنوبر فتعص على تصوغ روائعها  
 لحميلة ، كما كانت فى الجو أيضاً آثار من رائحة الملح القادمة من

(١) الجنادب Grasshoppers أنواع كثيرة من الحشرات يخرج الزواحف ما بين  
 الأخضر والبني ، وتصير بأن أرحبها الخلفية متحركة بصورة تساعد على الحركة  
 فقراً ، وتعيش الجنادب بين الحشائش ولتانات قليلة الارتفاع ، حيث تشاهد  
 وهي تنقف بينها بأعداد كبيرة ، لذلك تعرف أيضاً باسم « انعطافات » والبعض  
 يظن الجنادب « جراداً صغيراً »

البحر وقبل أن يبدأ في قراءة القصة شرحت لي الأئمة سوليغان الأمور التي أدركت أنني لن أفهمها ، ومصت أبعصاً وحن نقرأ تشرح لي الكلمات غير المألوفة . وفي أول الأمر كان هناك قدر كبير من الكلمات التي لا أعرفها وكانت القراءة عالماً متقطعة ، لكنني بمجرد أن تمهت جيداً حقيقة الموقف القصصي صرت أكثر شعاعاً بأحداث القصة من التركيز على الكلمات ، لدرجة أنني كنت أنصت بصبر نافذ إلى الإيضاحات التي كانت الأئمة سوليغان تشعر أنها ضرورية وحين أرهقت أصابع الأئمة سوليغان من العمل ولم تعد قادرة على هعاء المزيد من الكلمات ، شعرت لأول مرة في حياتي بفجعة ما فقدته حينما فقدت بصري ! وقد أمسكت الكتاب بين يدي وحاولت أن أتخسس الحروف ، ولن أنسى بدءاً ما حبيت كم كانت رعبتي قوية في ذلك اليوم في أن أكون قادرة على قراءة الكتاب بعضى . وفيما بعد وباء على إحاحي في الطلب رتب المستر أناجنوس مسألة كتابة هذه القصة بحروف بارزة ، ومصيب أقرأها مراراً وتكراراً حتى انطبعت في ذاكرتي تماماً . طوال سى طفولتي كانت قصة « اللورد مونتلروي الصغير » رفيقتي ومؤسستي اللطيفة والأنيبة إلى نفسي . إننى أذكر هذه التفاصيل برغم ما فى ذلك من مخاطرة أن أثير سأم القارئ ، لأن قراءى لهذا الكتاب كانت أمراً مختلفاً عن كل القرارات الأخرى التي تيسرت لى من قبل . أستطيع أن أؤرخ اهتمامى

الحقيقي بالكتب ابتداء من مصالعتى لقصة « اللورد مونتلروي الصغير » ، وبمدها قرأت فى العامين التاليين الكثير من الكتب فى منزلى وفى زيارتنا لمدينة بوسطن ، ولأستطيع أن أتذكر لأن ماذا كانت تلك الكتب جميعاً أو وفقاً لأى نظام قرائها ، لكننى أتذكر أنه كان من بينها الكتب التالية : « أطلال الإغريق » ، و « خرافات لافونتين » ، و « كتاب المجائب لهونور » ، و « قصص من لتوراة » ، و « قصص من شكسبير للامب » ، و « تاريخ إنجلترا للأطفال لديكر » ، و « ألف ليلة وليلة » (٢) ، و « عائلة روبسون لسويسرية » ، و « فتوح الآباء لرواد » ، و « روبنسون كروزو » ، و « نساء صمير » ، و « هايدى » . والأحيرة قصة جميلة قرأتها بعد ذلك باللغة الألمانية (٣) . وكنت أقرأ تلك الكتب بين أوقات المذاكرة واللعب ، وكانت سعادتى بالقراءة تتصاعف كلما قرأت المزيد . لكننى لم أقرأها قراءة دراسية ، ولم أنبئه إلى ما إذا كانت مصاغة بأساليب تعبير جيدة أم لا ، كما لم أفكر مطلقاً فى لأسلوب الأدبى أو هيسس ألفوه . لقد وضع هؤلاء المؤلفون كورهم عند أقدامى ، وقد قبستها كما يقبل عادة أنسة الشمس أو محبة أصدقائى . وأحست كذلك قصة « نساء صمير » لأنها

(٢) ترجمت قصص « ألف ليلة وليلة » العربية إلى كل اللغات الكبرى وحازت إعجاب الأجيال ولزوت كثيراً فى الآداب الأوروبية .

(٣) وهى اللغة الأصلية التي كتبت بها

جعلتني أشعر بقربى من الأولاد والبنات المحتتمين بالقدرة على السمع والبصر ، إذ كنت من عدة أوجه مقطوعة عن حياة الناس ، الأمر الذي حتم على الانعاس في مطالعة صفحات الكتب لأستفط منها أخبار العالم المحيط بكينائي الداني !

ولم يكن لدى اهتمام خاص بكتاب « فتوح الأدباء الرواد » وأعتقد أنني لم أكمل قراءته ، وبه أهتة أيضاً بكتاب « حرافات لافونتين »<sup>(١)</sup> وقد قرأت الحرافات أول الأمر في ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ولم أستمع بها كثيراً ، وبعد ذلك قرأت الكتاب مره أخرى باللغة الفرنسية ، وفي الحال على ما هو عليه من عدم الإعجاب كثيراً به بالرغم من سلاسة اللغة الفرنسية المستخدمة في الكتب وبالرغم أيضاً من إحساسي لتلك اللغة . ولست أعلم لماذا كان ذلك . تكبر القصص التي تتحدث فيها الحيوانات وتتصرف مثل البشر لم ترق لي بعد بل كنت أتصيق منها بشدة . فقد كنت أركز تفكيري على الصبر العرصة التي تبدو بها تلك الحيوانات ونسي المعنى لأحلامي الذي من لم يمتنع أن هذه القصص تعينه لنا وتوفد مرة أخرى عند « لافونتين » لأؤكد أنه لا يروى كثيراً بحسن لأحلامي المرهف ، فدرة الفضائل عده تبدو هي العقل وحب الذات ، فاحظ التفكير الذي بسو ، اصحاً في كل حرافات لافونتين هو أن الزرع لأحلامي لدى الإنسان

٤١ لافونتين ١٦٢١ ، ١٦٩٥ ، شاعر لوني

يتولد من حب الذات ، ويرى لافونتين أن حب الذات ، وجهه العقل والمطيق فلأيد من أن تتحقق به السعادة . والآل وبمدر ما يمكنني الحكم على هذه المسألة أستطيع أن أقدر أن حب الذات هو أصل كل الشرور<sup>(٢)</sup> ، لكن من المحتمل بالطبع أن أكون محطته في هذا الرأي طالما أن « لافونتين » كانت لديه فرص أعظم في ملاحظة صبح لبشر أكثر مما أتيج لي . ولست أعترض كثيراً على الحرافات التي تلوح من خلال فكر لافونتين بأن الطبيعة بشرية شريرة ، بقدر ما أعترض على الحرافات التي تقوم فيها حيوانات بتعليمنا وتذكروا ببعض الحقائق المهمة<sup>(٣)</sup>

ومع ذلك فأنا أحب « كتاب الأدغال » وكتاب « الحيوانات سرية كما عرفوها » ، ذلك أنني أشعر باهتمام كبير نحو حيوانات ذاتها ، أي من حيث هي حيوانات حقيقية وليست حيوانات مرعومة لقصد منها تمثيل البشر ولمرء لا يسعه إلا أن

٥ في الواقع كل من « لافونتين » و« هيلين كيلر » على حد : فحب الذات إذا كان في الحدود لمعقولة يصبح قوة إيجابية تدفع الإنسان للعمل والإبداع والتفاني الشريف مع الآخرين فتقدم الأفراد ويرتقون ويرتقي معهم المجتمع ، أما إذا زاد حب الذات على الحد المعقول فإنه يجعل الإنسان جمشعاً شريراً ويحثه على ارتكاب أبشع الجرائم من أجل تحقيق طموحه المريض

٦ هذا رأي هيلين كيلر الخاص والنابع من تكوينها الفريد وظروفها غير العادية ، لكن قصص الحرافات لافونتين قديم محب من آتزان الأدب والفكر ، وقد عرفنا في أدبا العربي كتاب « كنهية ودمنة » الذي يحصل على الكثير من قصص الحيوانات التي تضمنها الكثير من المفزى وأحكام والمراعاة

يتعاطف وينفعل بكل مايكتشف عالم الحيوان من حب وكرهية ،  
ويتباهى الصعق من جراء الأشياء الظرفية المصاحبة التي تحدث  
بين الحيوانات وبعضها ، ويكفى من أجل الناس والأشياء المحزنة  
التي تقع بينها . وحين يكون في الأمر معنى 'حلامي فإنه يقدم  
بطريقة غير مباشرة لانكاد نتركها .

كان عقلي دائماً يكن عاطفاً وجدياً للعالم القديم ( عالم  
التاريخ القديم ) ، وطالما كنت بلاد الإغريق تثير اهتمامي بصفة  
خاصة ، وطالما كنت أتحيل أبطال الملاحم الإغريقية مازالوا يدبون  
على الأرض ويحدثون رجاءاً لوجه إلى سائر البشر ، وكنت أكن  
في قلبي حباً وإعزازاً كبيراً لأوثق الذين أعجبت بهم أكثر من  
غيرهم . ومنحمة : الإلياذة (٧) . هي التي جعلتني أحب بلاد  
الإغريق حباً حمياً ، كما كنت أشعر بألمه خاصة نحو قصة  
'طروادة' (٨) . قبل أن أقرأ 'الإلياذة' في لغتها اليونانية . ولهذا

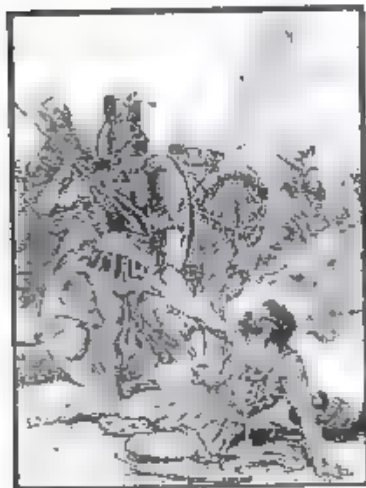
(٧) (٨) الإلياذة Iliad إحدى ملحمتين شعريتين نظمهما الشاعر اليوناني القديم  
هوميروس Homer في القرن الثامن قبل الميلاد ، والأخرى هي الأوديسة  
Odyssey وكلتاهما تنفي بطولات وعثر أبطال اليونان القديم . فالإلياذة  
تروي قصة الحصار اليوناني لقاعدة طروادة الواقعة على ساحل آسيا الصغرى  
ورقائع المعارك التي دارت بين الطرواديين واليونان في إطار هذا الحصار ،  
والأوديسة تروي الأحداث العجيبة التي صادفت 'أوديسيوس' أحد أبطال  
اليونان أثناء رحلته عودته بجزراً من طروادة إلى اليونان والمغامرات التي قام بها  
طوال عشر سنوات قبل أن يفي طريق العودة بين الجزر والبحار

السبب لم أجد عاءاً كبيراً في استيعاب الكتب اليونانية بعد أن  
تعلمت القليل من قواعد اللغة اليونانية . وأؤكد هنا على أن  
الطريقة الأفضل بفهم القصائد الشعرية العظيمة ومنها الملاحم ،  
سواء كانت مكتوبة بالإنجليزية أم باليونانية ، تتلخص في قراءتها  
بقلب متدفق بالحب والحماس . ولست الأستاذة الذين اعتادوا  
على وضع الشروح والتعليقات المهمة على الأعمال الشعرية  
العظيمة يعرفون هذه الحقيقة ! .. فليس من محتم أن يكون امرء  
على دراية بمعنى كل كلمة يكتي يفهم ويستشعر الإعجاب نحو  
قصيدة رائعة بأحد مصاحم القلوب . وأنا أدرك جيداً أن أساتذتي  
المتخصصين يحدون دائماً قدرات أكبر من ثروت المعنى والأفكار  
أكثر مما أجده في الإلياذة ، إلا أنني قانعة بما أجده عادة ولا أرفع  
في المزيد ، وأنا أيضاً راضة بأن يكون الآخرون أكثر مني حكمة  
وعذماً . ومع ذلك فمتعنتهم تلك المدمجة لانقاس برعم سعه  
معرفهم بمتعنتي الفريدة بها (٩) ، فحين أقرأ أكثر الأجزاء روعة  
من 'الإلياذة' أشعر بأنها ترفعت كثيراً فوق صروف حياتي الصعبة ،  
وتجسسى أنسى تماماً كل موقاتي لبدينية بصورة أشعر معها كما  
لو كنت أملت كل ما في العالم من الحرية والانطلاق .

(٩) ليهلين كبير كل الحق في أن تقول ذلك لأن القارئ على السمع والبصر  
لديهم الكثير من وسائل المتعة الأخرى غير القراءة . ثم إن قراءة ما تحفل به  
الإلياذة من مآثر ومواقف بطولية وإنسانية تهر النفس هراً وتغلب بالمشاعر  
بكل عند

الحزينة تبدو لى كشخص حقيقى ، وكنت أتخيلها ببقعة الدم على يدها الصغيرة البيضاء .

وبعد « ماكيت » سرعان ما قرأت « الملك لير »<sup>(١١)</sup> ، ولن أنسى ماحييت مشاعر الخوف التى انتابتى عندما وصلت إلى المشهد الذى سمّلت فيه عينا جلوتستر ، فساعتها تجمدت أصابعى ورفضت أن تطيعى وتتحرك ، وقد جلست لفترة طويلة وراح قلبنى يداق دقات سريعة وشمرت بكرهية شديدة هى أقصى ما يستطيعه الطفل من كراهية



البطل الإغريق داخيل ، بجهر على  
البطل الطروادى «هكتور» مشهد من  
ملحمة «الإلياذة» الإغريقية التى كانت  
هتلر كمل مفتونة بها

(١١) مؤلف «الملك لير» أيضاً من تأليف الشاعر ويليام شكسبير

وقد أعجبت بالإلياذة<sup>(١٠)</sup> بدرجة أقل ، لكنى أحببتها أيضاً ، وقد قرأتها عدداً كبيراً من المرات بدون الاستعانة بأشروح واتعليقات أو القواميس ، وكنت دائماً أحب أن أترجم لأجزاء التى أوثرها عن غيرها ، فالتصوير بالكلمات عند « هرجيل » يبدو رائعاً فى بعض الأحيان ، لكن الأفعال والرجاء عنده لا يبدو أشخاصاً حقيقيين كما هو الحال عند « هوميروس » . « هرجيل » رفيق وديع كحماد جميل يشذى فى ضوء القمر ، فى حين أن هوميروس يبدو كفتى وسيم عص الشياطين يستعرض نفسه فى ضوء الشمس بينما الهواء يعيث بشعره

وقد أدركت شكسبير منذ عرفت حب الكتب ، وليس بمقدورى أن أذكر على وجه الدقة متى بدأت أقرأ كتب لامت «قصص شكسبير» ، ولكن كنت أدكر أنسى قرأته أو الأمر بعليه وفهمه وإعجاب الطفل يبدو لى أن مؤلف شكسبير « ماكيت » كانت الأكثر تأثيراً فى نفسى . وقد طلت أن أذكر كل تفاصيل القصة بمجرد أن قرأتها ذات مرة ، ومكنت لفترة طويلة من الرمز أحبه بالشخصيات الشريرة التى نشتمل عليها . وكانت الملكة

(١٠) الإلياذة Aeneid ملحمة شعرية نظمها باللغة اللاتينية الشاعر الرومانى «هرجيل Virgil» فى القرن الأول الميلادى . وقد جاءت على غرار الإلياذة والأوديسة ولكنها مكتملة لهما ، فهى تتحدث عن رحلات الأمير الطروادى «إنياس» وعن تأسيس مدينة روما

ومن الأمور العريضة أن قرأني الأولى لشكسبير خلقت لي قدراً كبيراً من الذكريات الأليمة . أما المؤلفات الرقيقة الرائعة التي أقصتها الآن فلا يبدو أنني تأثرت بها أول الأمر ، ربما لأنها تعكس البهجة وصيحاء اشمس وهي الأمور المحببة المعتادة في عالم الطفولة .

وقد داومت منذ ذلك الوقت على قراءة أعمال شكسبير مراراً وبكراراً ومارلت أذكر أجزاء منها أحفظها عن ظهر قلب ، وإن كنت لا أستطيع أن أقدر أنها أصل عندى فمتعني بذلك الأعمال تتوقف على كيميائية إحاسى بها ، كما أن الأشعار ولقصائد هي في رأيي حافلة بالروعة والبهجة كالأعمال الفنية تمام . لكن ورغم كل حبي لشكسبير فإني أرى أنه من الصعب لبعاية في بعض الأحيان أن نجد لأبياته كل المعاني التي يسها إديها أو تلك الأساتذة المتخصصون ، فلطالما حاولت أن أذكر كل ما قالوه . لكن محاولاتي انتهت بي إلى الشعور بالإحباط وأسفرت عن توصلي إلى اتفاق غير معلن مع نفسي ألا أحاول ذلك مرة أخرى إلا إني عدت وكسرت هذا الاتفاق حينما كنت أدرس شكسبير تحت إشراف البروفيسور « كيتروچ » وأعرف أن هناك الكثير من الأمور في أدب شكسبير وهي العام من حولي لا يمكن فهمها ، ويسعدني لبعاية أن أرى نقابة بعد نقاب يرتفع تدريجياً من أمام عيني مما يتيح لي أن أرى أفكاراً جديدة وجمالاً

جديد

وفي المرتبة التالية بعد الشعر أحببت التاريخ ، وقرأت كل عمل يتعلق بالتاريخ أمكنني الوصول إليه . وإذا كان لي أن أذكر أسماء بعض من الأعمال فيمكنني القول بأنني قرأت « تاريخ الشعب الإنجليزي » لجيريس ، و« تاريخ أوروبا » لفرمان ، و« المصور الوسطى » لأمرتون . أما أول كتاب جعلني أشعر حقاً بقيمة التاريخ فهو كتاب « تاريخ العالم » لسويتون الذي تلقينته هدية يوم عيد ميلادي الثالث عشر . وأعلم الآن أن هذا الكتاب لا يعد في الوقت الحالي كتاباً متميزاً ، لكنني احتفظت به ضمن كبرى . ومن هذا الكتاب عرفت كيف انتشرت الأجناس البشرية من أرض إلى أرض وأخذت في بناء المدن العظيمة ، وكيف قام عدد محدود من الحكام بغزو عدد كبير من البلاد وقهر كل ما اعترضهم وتعمير مسار حياة ملايين البشر . وعرفت كيف عرفت الأمم المختلفة العصور أول ما عرفتتها ، وكيف كانت الحضارة تأفل في مكان ثم يبرخ من جديد في مكان آخر ، وعرفت أيضاً كيف يمكن للتعليم والحرية واحترام حقوق الآخرين أن تسهم في إنقاذ العالم بأكمله .

ومن خلال قراءتي أثناء المرحلة الجامعية توقفت على دراسة الأدبين الألماني والفرنسي ، فوجدت الأدب الألماني يصح القوة قبل الجمال والحقيقة قبل العرف ، في الحياة وفي الأدب ، واكتشفت أن هناك قدراً هائلاً من الجهد في كل ما يفعله

الألماني . فهو مثلاً حين يتكلم لا يكون ذلك بفرص جعل الآخرين بشعرون بمشاعره ، بل لأنه يشعر بأن قلبه سيهجر إذا لم يتكلم .

وللأدب الألماني أيضاً سجله الرائع الذي أحبه ، وإن كان أفضل ما أحبه فيه أنه يعترف بقدرة المرأة على النصيحة ، فتلك الفكرة لها وجودها في كل أعمال الأدب الألماني ، وأفضل تعبير عنها تجده في قصة جوتة : فاورست (١٢) .

وأفضل الكتاب الفرنسيين بالنسبة لي هم : موليير (١٣) ، وراسين (١٤) وهذا بحث تعجبي في : بيزاك (١٥) ، كما أن بعض كتابات : ميريميه (١٦) تبدو لي أشبه بريج قوية بهت من داخل البحر . ونسبوا إلى أعمال : ألفريد دوموميه : مستحبة (١٧) ! كما إلى معجبة بـ : فيكتور هوجو (١٨) وإن لم

(١٢) الشاعر الألماني جوتة (Goethe) (١٧٤٩-١٨٣٢)

(١٣) موليير (Moliere) (١٦٢٢-١٦٧٣) كاتب بعد من أعظم كتاب الكوميديا في المسرح الفرنسي

(١٤) راسين (Racine) (١٦٣٩-١٦٩٩) كاتب فرسي

(١٥) بلزاك (Balzac) (١٧٩٩-١٨٥٠) كاتب روائي فرسي

(١٦) ميريميه (Merimee) (١٨٠٣-١٨٧٠) كاتب روائي فرسي

(١٧) ألفريد دوموميه (Alfred de Musset) (١٨١٠-١٨٥٧) شاعر وكاتب فرسي

(١٨) فيكتور هوجو (Victor Hugo) (١٨٠٢-١٨٨٥) : شاعر وكاتب روائي فرسي

تكرر أعماله من امزج الحسنة إلى نفسي . ومع ذلك فكل من هوحو وحوته وشيفر (١٩) وكل الشعراء العظيم من كل الأمم اعطيتهم هم من ترجمون بل معاني الرائعة وأنا أقصى أثرهم بكل إخلاص إلى حيث يوجد الجمال والحق والخير

أحشى أن أكون قد أسرفت في الكتابة عن أصدقائي من «الكب» ، لكتاب : «إلى كتب في» ، فمع الأمر لم أذكر سوى بعض الأشياء فنص عن المؤلفين الذين أحب أعمالهم ، الأمر الذي قد يدعو البعض إلى الاعتقاد بأن دائرة أصدقائي من الكتب محدودة للغاية . وهذا غير صحيح ، فأنا أحب الكثير من الكتب لأسباب عديدة . مثلاً أحب : كرايل (٢٠) إعجاباً بقوته وجرأته في رحل أبحاث الذين يتظاهرون بعير حقيقهم ، وأحب : ودرورث (٢١) وشعر بالكثير من البهجة مع صفحات : هود (٢٢) ، ومع شدي

(١٩) شيلر (Schiller) (١٧٥٩-١٨٠٥) : كاتب وشاعر ألماني

(٢٠) توماس كرايل (Thomas Carlyle) ١٧٩٥-١٨٨١ مؤرخ وكاتب سكوتسدي مصنف منتج لفعل ونحو اسلمين نكر له كل الاحترام لدفعه عن رسول الكبر . وبعبه عنه تهمة الكذب والإدعاء التي رماه بها بعض الجهلة والمرعبين من المستشرقين ومن أقواله في كتابه «الأبطال» الذي تناول فيه شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما يبني : هل رأيت رجلاً كذاً يستطيع أن يخلق ديناً ويصنعه بالشر بهذه الصورة؟

(٢١) ويليام ودرورث (William Wordsworth) (١٧٧٠-١٨٥٠) شاعر بريطاني كبير

(٢٢) توماس هود (Thomas Hood) (١٧٩٩-١٨٤٥) : شاعر بريطاني

الربانيق والورود في قصائد هيريك (٢٣). وأحب هـ ويتير (٢٤) لشغفه بالحياة وبنائه للأخلاق الحميدة وكان لي حظ التعرف بهذا الأخير ، وحين أذكر صداقتي معه يصاعف ذلك من استمعاى بقراءة قصائده ! وأحب كذلك هـ مارك توين (٢٥) ، ومن الذى لا يحب هـ مارك توين ؟ فقد جعله الله سبحانه وتعالى ذكيا ! كما أحب وولتر سكوت (٢٦) لميوقته وصدقته وأعجب بكل الكتاب من أشال لوين (٢٧) الذى يرى الخير فى كل العالم المحيط به

والأدب باحسار شديد هو اليوتوبيا (أندية العاصمة) (٢٨)

(٢٣) روبرت هيريك Robert Herrick (١٥٩١ - ١٦٣٤) شاعر إنجليزى

(٢٤) جون ويتير John Whittier (١٨٠٧ - ١٨٩٢) شاعر أمريكى

(٢٥) مارك توين Mark Twain (١٨٣٥ - ١٩١٠) روائى وكاتب صحفى وأعطى كتاب ساجر حرفته أمريكا ، رسوف تحاول تقديم رايه «قوم سوير» فى إطار هذه السلسلة

(٢٦) السير وولتر سكوت Sir Walter Scott (١٧٧١ - ١٨٣٢) كاتب روائى سكتلندى .

(٢٧) جيمس لوويل James Lowell (١٨١٩ - ١٨٩١) شاعر وناليد وبهولماسى أمريكى .

(٢٨) اليوتوبيا : دولة مثالية خيالية افترضها الفيلسوف والسياسى البريطانى توماس مور Thomas More وجودها وألف عنها كتابه الرائع «يوتوبيا» Utopia عام ١٥١٦ ، والذى تضمن الكثير من أفكاره السياسية والاجتماعية وتلقى فكرة اليوتوبيا بفكرة «المدينة الفاضلة» التى عالجها المفكر المسلم الفارابى ، لذلك كثيرا ماترجم اللفظ «يوتوبيا» إلى «المدينة الفاضلة»

بالسببة لى ، فعلى عالم الأدب ليس هناك فرق بين أن أكون مبصرة قادرة على السمع وبين أن أكون كهيعة صماء . فأصدقائى من الكتب باستطاعتهم دائما أن يتحدثو معى بكل حرية وبدون تفرقة أو تمييز !

\*\*\*\*\*



## الفصل الثاني عشر

آمل

ألا يخرج صدقائي الفراء من مدامتهم للمصل  
سابق يصنع أن لفراء هي ههنا وهي وسيلة الترفيه  
بجسده بالنسبة إلى ، ككتاب لدى في ، فع الأمر هو أن  
ووسائل أخرى لفراء في حال بهجة في عسى

وقد حدثت منسبة عن حتى للربيع والرياح خارج المرب ،  
بجدره في لاس أني بعبث لتجديف ولساحة ، أن بعد صفه  
صغيرة بعبه ، كعب سعفة بهب في درجة في كعب في  
بعبه في كعبه في رستهام بولاه ماسنوسمتر أعش تقريباً  
في قاربي ، وقد اعتمد أن أعصب صدقائي حين يزوروني  
بعبه بعض بعبه في لتجديف ، يصنع له كعب باستعاعتي  
توجيه لغارب بطريقة جيدة ، فعدد ماكان شخص آخر يولي  
عملية التوجيه بينما أقوم أنا بالتجديف .

ومع ذلك كعب في بعض لأحياء أخرى على مسيل النهو  
، لمراج أن أقوه بالتوجيه عن طريق شمم رائحة لأعشاب امانه  
ورباني ولاستبدال بالشجيرات حاميه على — صي — أو بصير  
لضروفي بعبه كعب أسعمل محاديف ذات سيرور جلدية بمحل  
على حفظها في موضعها الصحيح .

وكنت أعرف من مقاومة الماء كيف أصبح المحاديف في  
موضعها المناسب ، وحين كعب أجذب ضد التيار كان يوسعي  
إدراك هذه الحقيقة من خلال إحساسي بمدى مقاومة الماء بل  
وصل بي الشفق بالتجديف حداً كنت معه أحب لتجديف ضد  
الريح والأمواج ، فالأمر يصح في غاية الإثارة حينما تجعل قاربك  
المصغير يعمل ماوعب أنت هي فعبه ، وقد كنت أحب أن أشعر  
بأنسياب القارب بحفة فوق صفحة الماء ، وأن أشعر أيضاً بالصعود  
والهبوط المتواصل الذي يحدث للقارب بعمل حركات الأمواج

كما كنت أستمتع بركوب الكانوا ، وأعتقد أن الفراء سوف  
يشمرون متى ذكرت أنني أحب بعبه حاصة الكانوا في الليالي  
المعمرة .. صحيح أنني لاأستطيع أن أرى القمر صاعداً في السماء  
حلف أشجار الصوبير ومرفقاً في يسر وعمرة على صفحة السماء  
ناركاناً وراءه خطاً مصيباً يشد إليه الأنظار ، ومع ذلك فأنا أدرك  
وجود القمر وأستطيع وأنا جالسة بين الوسائد ويدى لداعب الماء  
أن أتجمل جمال هذا المشهد وفي بعض الأحيان تترلق سمكة  
صغيرة جريئة من بين أصابعي ، وفي أغلب الأحيان تصطدم  
بحدى رباني الماء بيدى وكثيراً ماكانا نخرج من موضع صيق  
محيط بالشجيرات أو الصخور إلى موقع عريض مفتوح ، وحينئذ

(١) الكانوا canoe نوع من القوارب يتميز بأنه طويل رفيع ومذهب من طرفيه  
ويستخدم في مسابقات القوارب

كان بمقدورى أن أشعر بالعرق الحادث فى مقدار التيارات الهوائية المهيطة بنا .

أما هوايتى ومسلاتنى هى رياضة الشراع . وقد زرت فى صيف عام ١٩٠١ منطقة « يوفاسكوشيا »<sup>(٢)</sup> وهناك أتحت لى فرصة جيدة للتعرف على المحيط . لقد قصيت أنا ولأسرة سوليفان معظم الصيف فى « هاليماكس » حيث المياء راتج ، وكنا يبحر بقارب شراعى إلى الكثير من امواقع القريبة وفى الأمسيات نصبح غالباً على مقربة من السمر الحربية الضخمة الراسية فى سكوى ، وكان كل شىء يبدو رائعاً وفى عاية الجصاىل الأمر الذى سأطلل أذكره دائماً .

ودأت يوم حصناً معامرة مثيرة ، إذا كان هناك سباق للقوارب التابعة لىلسف الحربية المختلفة يجرى فى المياء ، وقد ذهبنا فى قارب شراعى ومعنا العديد من القوارب الأخرى لمشاهدة السباق ، وكان البحر هادئاً والمثاب من القوارب الشراعية الصغيرة تتحرك ها وهاك فى أنحاء المياء . وحين انتهى السباق وشرعنا فى العودة إلى مارلنا لاحظ أحدهم سحابة سوداء تتقدم بحوباً من داخل البحر ، وراد حجم السحابة بالتدريج وراداثت انتشاراً حتى غشت كل السماء ، وبدأت الريح فى الهبوب وتعاالت الأمواج ، وراح

(٢) نولاسكوشيا Nova Scotia ، منطقة بشرى كنا تقع على المحيط الأطلسى

قاربنا الصغير يواجه العاصفة بشجاعة وبدا وأسرته منشورة كما لو كان يمتطى ظهر الريح . ومضى القارب يهتز بشدة ويملو ويهبط بينما الأمواج الكبيرة لتقلده .. وحتى بعد إنزال الشراع الرئيسى ظلت الريح تدفع بنا من جانب إلى جانب ١ .. كان ذلك موقفاً عصبياً جعل قلوبنا واجفة وسريعة الدقات وجعل أبادتنا مرتجفة ، لكننا مع ذلك كما مغمسين بالإثارة دون أن يحالجننا الخوف ، بل كانت الشجاعة تملأ نفوسنا وكنا واثقين من قدرة القبطان على السيطرة على المواقف ، فقد تمكن من قبل ولاشك من قيادة السفى عبر الكثير من العواصف وكانت له قبضة ثابتة وأعصاب هادئة وعين بصيرة بالمواقف . وراحت السفى الكبيرة تطلق صفاراتها على سبيل التحية ونحن نمر بجانبها وراح البحارة يهتمون بالتحية والتشجيع لقبطان قاربنا الصغير .. وأخيراً وصلنا إلى الر ونحن نشعر بالبرد والجوع والإرهاق !

قصيت الصيف الماضى فى واحدة من أجمل القرى وأكثرها سحرًا وفرة فى إقليم « نيوإنجلند » وهى ريسهام بولاية ماساتشوستس ، وبهذه القرية ترتبط تفريداً كل ذكريات سعدتى ونعاستى ، فليسات طويلة كانت لمزرعة الحمراء وهى مقر المسر « ح . أ . تشمبرلين » وأسرته - مقراً لإقامتى أيضاً . وأنا ممتة للعناية وشاكرة لهؤلاء الأصدقاء الطيبين وللأيام السعيدة التى قضيتها بينهم . لقد كانت الصعبة الحلوة مع أبنائهم يعنى الكثير

والكثير بالنسبة لى ، إذ كنت شاوكة فى كل رياضاتهم ونزهاتهم  
عبر العابات ، وكنت ألعب معهم فى الماء . وعلائى المعادة  
وتحجور عادة حين أتذكر كيف كان أبائهم يتحدثون إلى ، وإلى  
أى حد كانوا يحبون انقصص التى كتب أسردها عليهم . وقد  
تعلمت من المستر تشمبرلين قدراً كبيراً من المعلومات عن  
الأشجار وأنواعها وعن الأزهار البرية .

بدو لى أن كل ما حر الشتر لديه فهم للمشاعر والانبعاثات  
التي حبرها البشرية مد فمر عهدا ، فكأن شخص لديه فى عقله  
الباطن بعض دكرات الأبحر الحصراء ، حرير المياه ، ولا يمكن  
للعصى والصه أن سبب هذه المنحة لإلهة من البشر . فهى  
بمثابة نوع من لحاسة السادسة<sup>٣</sup> ، وهذه الحاسة تحمل الإنسان  
يرى ويسمع ويشعر فى آن واحد .

كان لدى الكثير من الأشجار التى كتب حبها وأثرها فى  
ريتهم . ومن تلك الأشجار شجرة سديال رائعة كانت أثيرة إلى  
قللى بصمة خاصة ، كتب أصحاب كل أصدقائى للرؤية ملكة  
الأشجار هذه . كانت لشجرة تهص شامحة فريق من تقع أعلى  
بحيرة صغيرة ، وكان أوغث الذين يمشكون قدراً كبيراً من

(٣) الحواس خمس وهى السمع والبصر والشم واللمس والذوق ، ويفترض البعض  
وجرد حساسة سادسة هى إدراك الجهل ، لكنها فى واقع الأمر هبة من الله  
يحبها لمن يهاد فى الوقت المناسب وليست حاسة تابعة ومالئة

الحرارة بالأشجار يقولون إنها لابد قد مضى عليها فى ذلك النوع  
ثمانمائة أو ألف عام ، وكانت لدى شجرة مقصبة أخرى شجرة  
رفيعة وودودة أكثر من السدينة العملاقة ، تقع بالقرب من بوابة  
المرزعة الحمراء . وفى عصر أحد أيام شعرت أثناء هبوب عاصفه  
عيفة يشيء صمحة يصطدم بجانب المرل ، وعرفت حتى قبل أن  
يحسرونى أن الشجرة قد اقتلعتها أرياح . وقد خرجنا للرؤية تلك  
البطة التى سقطت بعد أن صمدت مويلاً فى وجهه الكثير من  
لعواصف . وإذا ما حرت يتأبى من أحل هذه الصحية اسريه

بتعريف عيسى ألا أنسى أنسى كنت أتوى الكتابة عن الصيف  
الخاصى بصمة خاصة ، فمحرره اسهاء امحاناتى أسرع أن  
. لأنسه موليغان إلى ريتهم حيث كما تمتدك مرلاً رعبا يقع  
على إحدى السحور اثلاث التى سنهر بها سبت السدود . وهى  
هد المكاء كنت أيام نصيف الطوية امشمة ملكاً خاصاً لى ،  
وكتب أنسى معها العمل والكلية والمدية المئنة بالصوصاء . وهى  
ريتهم سمعا بالأحداث المؤسفة التى كانت تقع فى لعائم .  
ككن هذه لأحداث كتب تدمو لما بعيدة للغاية عما ، لذلك  
يهتم بها كثيراً لأنها كما تصور أنه سيحيى وقت تتوقف فيه  
الحروب والقتال فى الأخرى الجارية فى العالم ، أما السحيرات  
والعابات واحقون المزدانة بالأزهار فسوف تبقى عيسى مر الأيم .

يتعجب أولئك الذين يعتقدون أن كل أحاسيسنا نحن البشر  
تصل إلينا عبر اذناننا وعيوننا ، من قدرتي على إدراك الفوارق بين  
المسير في شوارع المدينة والمسير في طرق الريف - فيماعدا طبعاً  
عدم وجود طبقة الأسفلت على الطرق الريفية - ويسى هؤلاء أن  
حسدى كله حساس للظروف المحيطة به ، فأن أحس بضجة المدينة  
من خلال أعصاب وجهي<sup>(١)</sup> فلا أشعر بأى نقب لها بل إن  
ضجة وحركة لمدينة - وقد لايتصور البعض ذلك - أكثر إيداء لى  
هى بالنسبة لشخص مصير وقادر على السمع ، وذلك لأسى لا  
أستمتع بالمشاهد المتعاقبة والأصوات المتغيرة فى الشوارع المزدهجة  
الحافلة بالضوضاء كالآخرين .

فى الريف لا يرى المرء سوى مشاهد الطبيعة الجميلة ، وفى  
المدينة يرى الحياة مجرد صراع متواصل يهتف فيه الكثير من  
الناس . وقد قمت لمرات عديدة بزيارة الحواري القدرة الصقة  
حيث يعيش الفقراء ، وأستطيع القول أنه مما يثير عصبى وأبى أن  
يرضى الناس الطيبون بسكنى لمنازل الجميلة وبالتمتنع بالصحة  
الطيبة التى تكفل لهم الراحة وتغضى عليهم أمارات الرسامة  
والأنافة ، بينما هناك أناس آخرون يضطرون للمعيشة فى منازل

(٤) للصحف والصحف فبذات تنظر موحاتها فى الهواء ويشعر بها الصم على  
هبة لتميل بحديث فى وجوههم فقد عوضهم الله عن نعمة السمع بأن  
جعلهم مرفق الحس أكثر منا

قدرة مطلحة فتبدو عليهم مظاهر القبح والعيش وسيطر عليهم  
الخوف والقلق والإحساس بالدل . مما يثير غضبى وأبى أيضاً أن  
الأطفال الذين يلعبون فى تلك الحواري الصيقة ليس لديهم من  
الملابس ما يكفى لستر عورتهم وليس لديهم من الطعام ما يدفع  
عهم عائلة الجوع . وأنت حين تحاول أن تربت عليهم تجدهم  
براعونك ويهربون منك كما لو كانوا يصمرون أنك سوف  
تؤذيهم . وقد قمت بتجسس أيدى الرجال والنساء موحدها حشنة  
وجافة من أثر التعذية . ولاشك فى أن حياة هؤلاء التعساء عبارة  
عن سلسلة متصلة من المعاناة ، ولاشك أيضاً فى أن هناك فارقاً  
كبيراً بين الجهود التى يبذلونها والعائد عليهم من جراء بذل تلك  
الجهود . فالعائد صغير ضئيل القيمة . ومن العرب حقاً أن  
الشمس والهواء اللذين يقول عنهما أنهما هبة الله لمجانبة لكل  
إنسان ، ليس لهما وجود فى تلك الحواري الصيقة من المدينة  
حيث لاتسطع الشمس على الإطلاق ولايعرف السيم طريقه  
إليها .

إن الإنسان يتناسى أحاء الإنسان ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء طالباً  
منه خبز يومه فى حين أن أحاء الإنسان لايملك منه شيئاً .  
هيا للمعجب ، ! . إننى فى واقع الأمر أوصى أن يهجر الناس المدينة  
بكل بهاتها ومحاتها وبكل ضوضائها وذهبها ليمودوا إلى الضيقات  
والحقول وإلى الحياة البسيطة الصادقة : محبته سوف يمو

صغارهم ليصبحوا طوال إقامة ومتنصي العبداء كالأشجار ،  
ويكسبو سقامة الطبع وبقاء السريرة . ومن امثال لاتدور يدهي  
مثل هذه الأفكار حين أعود إلى الريف بعد عدم من العمل في  
لمدينة !

كان من دواعي الهجة أن أشعر بالأرض الرجوة تحت قدمي  
بابية وأن أسير في الصق الريمية لمينة بالأعشاب ولحنائش  
والمقصية إلى البراء المحاطة بينات للرحس ، حيث كان يوسعي  
أن أعسس يدي في الماء بحاري أو أن أنسلق مسحداً حجرياً  
للموصول إلى الحقول الخضراء .

وحيث في لمسة انشاة بعد اسره اسماعي يركوب دراجتي  
لمردفة <sup>٥</sup> عفا كك كك رتعا<sup>٦</sup> أن أسمر بالريح تلاطم وجهي  
بحركة حصاي الحديدى هد حين يطلق ولاندفع السريع  
عراجه ، يصحى إحساساً لطيفاً بالقوة واحفه ، والتعريس  
يخمسى سمر بالصحة والسعادة وكان كلبي يصحبني في لمره  
يركوب لدرجه<sup>٧</sup> لغارب الشراعى كلما<sup>٨</sup>مكن ذلك وكان  
يدي دائماً بعدد من الكلاب المختلفة الأنوع ، ولدى في اوقت  
لحالي كتب من نوع « البشريا »<sup>٩</sup> ، وهو كلب يحفر من

٥ المراجعة لمردفة tandem bicyclette مراجعة مصممة لمسح يركوب  
شخصين خلف بعضهما . ولكل منهما بمال خاص للتعدين

٦ البشريا bullterrier نوع من الكلاب قصير الأرجل وعريض الصدر ، وهو  
قبيح الهيئة لكنه معروف بقوته وشجاعته

سلالة متميزة ، ويتسم بديل قصير شكله مثير للصحت ، كما  
كان له أكثر الوجوه مدعاه للصحت بين كى كلاب العالم . . .  
يبدو أن كلابي تنهم حقيفة مالى من عاقبة ونسكت بانقرب  
مى كلما كتب مسردة وأنا أحب أساليبها الودودة والطريقة التي  
تهز بها ذيولها

وحيث اصطر في يوم مطير إلى ملارمة بيت ألعاً عادة إلى  
تسليه نفسى كك تفعل الباب لأحرياب ، فأنا أحب حبك  
الصوف (التريكو) وشغل الإبره ( الكروشيه ) وأقرأ قليلاً أو لعب  
مع إحدى الصديقات .

وحيث يكون هناك أطفال حركى أنمتع بالنمب معهم ، وأجد  
الصحة الرائعة حتى في أصغر الأطفال مساً ، ومن دواعى سعادتي  
أن الأطفال بدورهم يحبوننى ، وهم يقرودونى حين أنفرك في  
المططقة عجيطة بى ويطلعوننى على الأشياء التي تثير اهتمامهم

وصغار الأصمال لايتصنعون بالصع أن تحدثوا إلى بالهجة على  
أصانعى لكسى ألعاً إلى قراءه شفاهم ، وحيث أتحج في ذلك  
يتلمسون عادة طريقة أخرى ليوضحوا لى بها مايقصدون وفى  
بعض الأحيان يلتبس عنى لأمر ويصدر منى تصرف حاطلى  
يفضحك الطفل ويحرد لمعل الشىء نفسه من جديد وكثيراً ما  
أجد نفسى مستغرق فى سرد القصص على الأطفال أو تعليمهم

لعبة جميلة ، وإذا بالوقت يمضي سريعاً ونحن في مرح وبهجة وجور .

ومن دوافع سعادتي أيضاً زيارة مراكز البحوث ومحال البيع ، وربما تعجب بعض الناس من مقدرتي على التمتع بجمال الأشياء من حلال حاسة اللمس فقط ، وقد يجدون في ذلك أمراً مستغرباً ، لكن أنا أملي حين تتحرك على خطوط ومحفيزات العمل الفني وتحسبه يصبح بمقدورها اكتشاف ماأودعه الفنان في ذلك العمل من أفكار ومشاعر إنسي قادرة على الإحساس بمشاعر الحب أو الكراهية وأمارات البلى أو الشجاعة ، تماماً كما أنا قادرة على الإحساس بكل ذلك في وجوه الأحياء من البشر الذين يتاح لي أن ألمس وجوههم وأن أحب بصفة خاصة رموز أبطال الملاحم الإغريقية ورموز الحيوانات أيضاً . وفي عرفة مكسي هاك رمز للشاعر الشاعر اليوناني هوميروس موجود في موضع سهل على الوصول إليه وأنا أحفظ موضع كل حظ والحناء في ذلك ، وأجد الوجه يصر عن الأسى وعن روح النضال ، وأجد العين المكشوفة تبدو كأنهما تنظمان إلى الصوء وإلى سماء اليونان اللارودية<sup>(٨)</sup> ، كما أجد العم ينبيء عن الحزم والصدق والركة في آن واحد . إنه وجه شاعر ورجل يعرف معنى الحر والهموم

(٨) اللارودية نسبة إلى اللون اللارودي وهو لون رقة السماء

الحياة ، ومن الطبيعي أن أتعاطف معه تعاطف "كبيراً" نظراً لكونه مكشوقاً مثلي .

وحين أصبح مع الخيال أصير قادرة على سماع هوميروس يشكو وهو ينقل من معسكر لآخر بحلى متعثرة<sup>(٩)</sup> . إنه يشكو للحياة والحرب ، ويشكو بمآثر الأبطال العظيم ، ولقد كانت الإلياذة والأوديسة حقاً ملحمتين رائعتين أثارتا إعجاب الناس في جميع العصور .

ولني أتعامل في بعض الأحيان . أليس بوسع اليد أن تستشعر الجمال أفضل مما تستطيع العين ؟ فأننا نعتقد أن انسياب الحطوط والانحناءات يمكن أن نستشعره اليد أفضل مما تستطيع العين أن تراه . وسواء كان هذا صحيحاً أم غير صحيح ، فإنني أستشعر قربي الشديد من الإغريق .

ومن وسائل المتعة الأخرى التي لا تتحقق إلا نادراً الذهاب إلى حيث الأعمال الفنية ، وأنا أستمتع بحضورها إذا ما صاحبي شخص آخر ليصحبها لي أثناء تأديتها ، وهذا عدى أفضل من قراءتها لأن حضوري يجعلني أشعر بوجودي وسط أحداث مثيرة وقد التقت ببعض كبار الفنانين الذين كانوا قادرين على جعل الجمهور مستمتعاً ، وجعله يعيش في الماضي الجميل لبعض

(٩) كان هوميروس يتجول في أنحاء اليونان مشدداً أشعاره ويكتبها

الوقت وقد أُلحِق لي أن أنحسر وجهه وملابس العانة الشهيرة  
الاسنة « إلى نيري » عقب أدائها لدور ملكة مثالية ، وكان يقف  
إلى جانبها الفنان الكبير السور « هري ليرفنج » الذي لعب دور  
الممثل . ولن أنسى ما حبيب كم كان هذان الفنانان يندون  
كمملكين حقاً !

وعرفت أيضاً الفنان الأمريكي الشهير « جوريف جيفرسون » ،  
وأما محوره بأن أعمره أحد أصدقائي ، وعاده أذهب لرؤيته كلما  
كنت موجودة في الموقع الذي يؤدي فيه أدوره . وقد رأيته لأول  
مرة حينما كنت أدرس بمدرسه في نيويورك ، وكان يدعب دور  
« رب فان وكنل » ١٠٠ وقد قرأت القصة لعدد كبير من المرات  
لكنني لم أستشعر أبداً سحر شخصيه « رب » كما مستشعرته حين  
شاهدت هذا العمل الرائع . إذ لعب الممثل جيفرسون دور رب بأداء  
جميل حزين ، ولدى صورة لرب رأيتهما بأصابعي ولن أنساها  
داكرني اللصية ، فبعد مشاهدتها بهذه لقصة صحتني الأسنة  
سوليفان لمقابلة الممثل جيفرسون ، ومصبت أنحسر وجهه وملابسه العربية  
وشعره المسترمل ولحيته الظليقة . ورتاح لي الممثل جيفرسون أن  
أمس وجهه ليكون بمقدوري أن أتحوّل كيف كان يبدو حين

١٠٠) رب فان وكنل Rip van winkle بطل قصة ألفها واشنطن إيرفينج ،  
وفيها بنام مدة عشرين عاماً لم يصحو فجأة ليجد الدنيا قد تغيرت كثيراً من  
حواله

استيقظ من نومه بطويل العريب ١١١) ، وحرص على أن يوضح لي  
عصلي كيف كان يقف العجور لمسكين « رب »

وقد رأيت جورج جيفرسون أيضاً في قصة « المتفلسون » ذات  
مره حينما كنت أرويه في بوسطن ، وهام هو ورائته بأداء أكثر  
المواقف إثارة في تلك القصة حصيصاً من أجلّي ، ورحت أتبع  
كل الحركات بدي . وفي أول الأمر كان يجلسان إلى مقصدة  
كبيرة ، وفي نهاية المطاف راحا يتقنلان بالسيوف . ولو كنت  
هذه القصة قد وصفت لي عن طريق الهجاء عني اليد لما كنت  
فركت على هذا النحو الجيد كم كانت مريحة وفكاهية وإلى أي  
حد تكون مباررة بالسيوف مثيرة ومشوقة ! ومرة أخرى قام بستر  
جيفرسون في عصر ذلك اليوم بأداء بعض الأجزاء من قصة -  
« رب فان وكنل » من أجلّي ، وقد صبت متى أن أوضح له مقدار  
ما أستطيع الحركة المناسبة لكل سطر من الحوار . وبالطبع وبمقدور  
ما يسعى التصور كانت كل حركة تبدو لي أسب ما تكون لسطر  
لحوار الذي تعشه . وكان كل مايفعله جوريف جيفرسون يبدو  
مطابقاً لما يحدث في الحياة دائها . ووعلى الأقل لما يحدث في  
لأحوال المثالية . أي حين يحدث كل شيء على النحو الذي  
ينبغي أن يحدث به

١١١) في تلك القصة بنام « رب فان وكنل » ، يوماً متصلاً لمدة عشرين عاماً . ثم  
يصحو فجأة ليجد العالم قد تغير من حوله

ومارلت أذكر جيداً المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى دار  
المرض ، لقد كان ذلك منذ اثني عشر عاماً ، إذ كانت الفنانة  
الصغيرة «إلري لزي» في بوسطن ، وصحبتني لأسرة موليومان  
لأشاهدها في قصة « الأمير والفقير » .

ولن أنسى ماحييت التغييرات الحادة من البهجة والفرح إلى  
الأسى والحزن ثم إلى البهجة والفرح مرة أخرى التي خيمت على  
أحواء تلك القصة القصيرة الجميلة . كما سأظل أذكر دائماً تلك  
الطعمة الرائعة التي لعبت دوراً فيها . وقد أتبع لي عقب هذا  
العرض أن أقابها وهي لانرال برنسي الملابس الملكية . ولاشت أنه  
يندر للماية أن يجد طفلاً غراً أكثر وداً ووداعة وكسباً للقلوب من  
الطفلة إلري وهي تفعل هناك ، وتسمم في عذوبة دون أن تلوح  
عليها أميرات الصجر من جرة وقوفها لأداء الدور أمام هذا الحشد  
الهائل من الجمهور . كنت في ذلك الوقت قد بدأت لتوى في  
تلم الكلام ، وقبل أن ألتقي بها رحلت أنتق اسمها وأكرره  
ليتسى لي أن أنطقه أمامها صحيحاً . وغمرني السعادة حينما  
عرفت أنها فهمت الكلمات القليلة التي تحدثت بها إليها ،  
وحينما ملئت يدها لتصافحني

كما ترى أنها القديرة العزيرة فإن حياتي في ذلك الوقت برعم  
كل مايعتريها من معوقات كان لديها بعض الصلات بالعالم

الجميل ، وكان لكل شيء حسه ورويقه حتى الظلام  
والصمت .. وقد تعلمت أن أكون قانعة بما أنا فيه ، وإن كنت  
في بعض الأحيان يتناهى الشعور بأني أعيش وحيدة معزولة ..  
تماماً كما لو كنت أجلس إلى نفسي خارج بوابة سلقة ، بينما  
الدار ذاتها من الداخل حافلة بألوان البهجة من أصواء وصحبة  
حميله هائلة . دون أن يكون بوسني اختيار تلك البوابة التي شاء  
الله أن يقيبي خارجها ! وأحياناً تحيم علي لحظات مظلمة أنساء  
فيها عن نصيبي ودوري في الحياة وتتلاعب برأسي أفكار مريرة .  
لكن الأمل مايلت أن يملأ جواسحي وتعاودني البهجة حين أنسى  
واقعي المؤلم . إنني أحاول دائماً أن أجعل الضوء في عيون  
الآخرين شمساً دافئة وقمرًا منيراً .

\*\*\*\*



## الفصل الثالث عشر

أود

لو منعت أن أذكر من هذا الكتاب أسماء كل الناس الذين أصعب على حساب لمسات السعادة ، بعض هؤلاء من المشاهير الذين يتمتعون بحب صحبه والبعض الآخر غير معروفين على الإطلاق بالنسبة لأطب العراء ، لكن هذا ليس ساء كافياً لكي يفهمهم ، الناس الذين أثروا حياتهم وررعو فيها السمه والأمل إليها تجربه رائعه أن يلتقي بأناش بهذا القدر من العصبه ودفء لشاعر إلى الحد الذي يجعلنا نشعر بالملكيه والسعاده حين نكون مصحبتهم ، فهم يفتحون أمامنا أفقاً حديده هي احياء ، كشمس ل عن حواسيب حير حديده في ادب

وهناك سؤال كثيراً ما كان البعض يقويه عنى ، وهو كالمسى « آلاير عجت الناس ؟ » ، وسبب أفهم تماماً ماذا يعنى هذا ، لكسى بالطبع لا أحب يربو لحمقى أو لفصلين . ولا ألقى بالأهتماماً محررى الصحف ، وكره أن يحاوي الناس لحديث إلى بطريقة مسطه بصورة مصطنعه وسدجة من أجل أن أفهم إتهم يبدون كأولئك الذين يحاولون تفصيل خطهم لتتناسب مع حضاك وهم سائرون معاً ، ففى كنت الحائنين يحون هؤلاء أن يكونوا شيئاً غير ماهم عليه الأمر الذى يجعلك تشمر بالألم

والصيق

وأبدى الناس الذين ألتقى بهم تتم لى عادة بقدر وفير من المعلومات عنهم فأحياناً ألتقى بأناش يعدون من بروده لمشاعر إلى حد أن مصاصحة أيديهم تكون أشبه بمصاصحة إحدى عواصف الشتاء . وأحياناً ألتقى بآخرين يمثلون بدوء المشاعر إلى حد أنهر معهم بالدفء يسرى فى قلبى ، وقد يقتصر الأمر أحياناً على مجرد نسمة من يد طفل لكنها تشعربى بقدر كبير من السرود كأنها البفرة الحانية حين يستشعرها شخص مبصر

ومن الأمر اننى نسحق قدراً كبيراً من السعاده أيضاً مراسله الأصدقاء ، وقد استطعت بعدد كبير من الأصدقاء فى أنحاء العالم وإن كنت لم ألتقى بهم أو أراهم فقط . وهؤلاء الأصدقاء فى واقع الأمر من الكثرة إلى حد لا تكون معه قادرة دائماً على الرد على كل رسائلهم ، لكسى أود أن أسجل هنا شكرى وامتنانى العطشير لكوبى ألتقى منهم كل تلك الكلمات الرقيقة التى لها أطيح الأثر فى عسى حتى لو لم أكن قادرة على الرد عليهم

وقد أتحت لى فرصة التعرف بالكثيرين من العظماء ، ومن هؤلاء لدكتور « أوليفر ويندل هولمز » (١) .. ومازلت أذكر جيداً المرة

(١) أوليفر ويندل هولمز Oliver Wendell Holmes (١٨٠٩ - ١٨٩٤) طبيب وأستاذ جامعى وشاعر ومرف وكاتب صحفى أمريكى شهر

الأولى التى التقيت فيها بهذا الشاعر والكاتب والمحرر الصحفي الكبير ، وكان قد دعانى أنا والآنسة سوليفان لزيارته فى عصر يوم أحد ، وكان ذلك فى أوائل الربيع وعقب نسمي الكلام مباشرة وقد ذهبنا على الفور إلى مكتبه حيث وجدناه جالساً فى مقعد كبير إلى جانب مدفأة كانت تنشر الدفء فى أنحاء الغرفة . وأضرب ما فى هذا اللقاء أنه أبلغت أنه كان مستغرقاً فى التفكير فى الأيام السعيدة التى صادفته فى حياته

وكانت العرفه موح بها رائحة أحبار الطباعة وجلد أعلفه الكتب ، الأمر الذى أدركت منه أن المكان ملئ بالكتب . وقد مددت يدي لأتخس بعض تلك الكتب ، فلمست أصابعي مجلداً جميلاً كان عبارة عن ديوان لأشعار « تينيسون » وحين أبلغتسى الآنسة سوليفان بمحتوى الكتاب ، بدأت أردد بعض أبيات إحدى قصائد تينيسون التى كنت أحفظها عن ظهر قلب ، لكننى لم أكن أن توقفت فجأة حينما شعرت بقطرات من الدمع تتساقط على يدي . لقد جعلت الدكتور هولمز يبكى ، الأمر الذى كان مبعثاً لأسعى ' وقد أجلسنى الدكتور هولمز فى مقعده ، ومضى يحضر لى بعض الأشياء المثيرة للاهتمام لكى أحصلها . وبلغت له بناء على طلبه قصيدة « قوقع النوتى عديد الحجرات » (٢) ،

(٢) قوقع النوتى عديد الحجرات The Chambered Nautilus : قصيدة شهيرة نظمها « أوليفر ونيل مولسز » عن قوقع من نوع النوتى اعتاد أن يصنف حجرات جديدة إلى قوقعه كلما نما وتزايد حجمه

وكانت قصيدتى المصصة فى ذلك الوقت . وبعد أن التقيت بالدكتور هولمز مرات كثيرة ، أحببته كإنسان بقدر ما أحببته كشاعر

وفى أحد أيام الصيف الجميلة وبعد فترة قصيرة من لقاى مع الدكتور هولمز ، قمت أنا والآنسة سوليفان بزيارة الشاعر والصحفى والمصلح الاجتماعى « جون جريليف ويتيار » فى منزله الهادىء الواقع على نهر « ميرماك » ، وقد أدا فزادى بلطفه وأدبه الحم . وكان لديه أحد حوارين شعره مطبوعاً بحروف بارزة ، فرحت أقرأ له قصيدته « فى أيام المدرسة » ، وسره ثمكنتى من مطلق الكلمات بطريقة صحيحة ، وذكر لى أنه لم يعان أية صعوبة فى فهم كلماتى . ثم انطلقت أسأله عدداً واحداً من الأسئلة عن قصيدته ، ورحت أقرأ إجاباته ، وكان من بين ما قاله أنه هو نفسه الصبى الصغير الذى تتحدث عنه القصيدة ، وأن اسم الفتاة التى تتحدث عنها القصيدة هو « سالى » ، وذكر لى أيضاً الكثير من الأمور التى لم أعد أذكرها . وتلوت له قصيدة أخرى ثم ذهبنا بعد ذلك إلى مكتبته ، وقد وقع ويتيار باسمه فى أنوجراف الآنسة سوليفان وأبلغها بإعجابه بجهودها فى تعليمى ، وقال لى أيضاً : « لقد حررت روحك من عقائلها » وبعد ذلك قادنا للسواية وودعنى ، وقد وعدت بزيارته مرة أخرى فى الصيف التالى . لكنه وللأسف الشديد وافته المية قبل حلول ذلك الموعد

وكان من أصدقائي العداوى أيضاً الدكتور « إيفريت هيل » ،  
الذى عرفته منذ أن كنت فى الثامنة من عمرى ، والذى كان  
حتى له يترايد كلما تقدم بى العمر وقد أعانى وأعان الآسفة  
سوليفان على اختيار الكثير من الصعوبات بحكمته ورقته ومشاعره  
النبيلة . كما عاوب أيضاً الآلاف من الناس الذين وجهتهم  
الصعوبات فى حياتهم ، بنفس لطيفة التى عاوب بها . وقد دأب  
على تعليم الناس معنى الحب والوفاء ، ومعنى الحياة ، وكيف  
يعيشون أحراراً . وقد مهدنا كيف كان يعبر عملياً عن أفكاره فى  
حياته الخاصة والعامة فصل تعبير كيف كان حبه لبلاده ،  
وكيف كان عصمه وشخصيته نحو كل إنسان بما فى ذلك أنفه  
لناس شائناً ، وكيف كان إصرره على أن يجعل الحياة من حوله  
أفضل مما هى عليه .

كنت لى فى الفصل الأول عن لىانى الأول بالدكتور  
« ألكسندر جراهام بل » ، وقد قصيت معه منذ ذلك اللقاء الأول  
الكثير من الأيام السعيدة فى واشنطن ، وكذلك فى بيته بجزيرة  
« كيب برينتون » ، وفى ذلك البيت وفى ورشته الخاصة قصيت  
الكثير من الأوقات السعيدة أنهت إلى ما كان يحكيه لى عن  
تجاربه . وفى الحقول القريبة من الشاطئ رحلت أعوانته فى إطلاق  
طائرته الورقية ، التى كان قد أعدها من أجل الاستعانة بها فى

اكتشاف قوسين الضبعة اللامرئى لتطوير المساميد<sup>١٣</sup> . لقد كان  
الدكتور بى عاماً ممتعاً بالكثير من المصنوعات فى ميادين العلم<sup>١٤</sup> ،  
وكانت لديه القدرة على إضفاء الإثارة على كل الموضوعات حتى  
أعقد المحاضرات العلمية . إنه يحتلك تشعر أنه لو كان لديك مزيد  
من الوقت فسوف يكون بإمكانك - أنت أيضاً - أن تصبح  
مختصراً . وكان الدكتور بى يبدو فى بعض الأحيان مرحاً ، وفى  
أحيان أخرى حزيناً كان شعراء وهو رجل يحب الأطفال جداً جداً  
وكان يشعر بسعادة لا توصف حين يرى صفلاً أصمماً بين دراجيه .  
وسوف نض إخباره من أجل لىم دقية لمعنى صفلاً لم يودو  
بعد ونحن نوجه من أجل إخبارته الخاصة بعصمه ، ونوجه كدب  
من أجل تأثيره على الآخرين ، بشجيعه لهم على إخبار !

نحب لى أثناء العامين الذين قضينهما فى نيويورك لكثير من  
الفرص لتحدث مع بعض لشخصيات الامة حتى سمعت  
تأسمانها من فى دون أن أتوقع مقبستها وأعاب هؤلاء كان

<sup>١٣</sup> قبل عصر الطيران الذى يعيشه الآن ، والذى بدأ عام ١٩٠٣ بتجارب الأخوين  
رايت فى الطيران بظلالهما ، استهدمت الطائرات الورقية فى إجراء الكثير من  
التجارب والاختبارات العلمية على الجو

<sup>١٤</sup> اشرب إلى الدكتور « ألكسندر جراهام بل » فى هامش سابق ، ونضيف أنه جمع بين  
كونه عالماً وباحثاً وأستاذ الفسيولوجيا الصوتية vocal physiology وبين  
كونه مختصراً لعدد كبير من المحاضرات من بينها العديد من الرسائل المستخدمة  
فى تعليم الصمم .

لقائى الأول بهم فى منزل صديقى الفاضل المستر «لورانس هاتون» الناقد والمحرر الأدبى لـ «مجلة هاربر» ، وكان من دواعى سرورى أن أزوره هو وزوجته العزيزة المستر هاتون فى منزلهم الرائع ، وأن أرى مكتبتهم الحسنة التنسيق ، وأن أقرأ الكلمات المعبرة التى خطها لهم أصدقاؤهم وما تفيض به من مشاعر طيبة . وكان الناس يقولون دوماً عن المستر هاتون أن لديه موهبة استخلاص أفضل الأفكار وأطيب المشاعر من كل شخص يلتقى به .

والمستر هاتون صديقة مخلصة ، وأنا مدينة لها بالكثير مما اعتبره عزيزاً على نفسى وأثيراً إلى قلبى ؛ فقد ساعدتني كثيراً فى تحقيق تقدمى فى دراستى الجامعية وكانت تسدى إلى النصح والمشورة . وحين كانت الصعوبات تتكالب علىّ ويذهب اليأس إلى نفسى ، كانت تكتب لى رسائل تقوى من عزيمتى وترد إلى شجاعتى .. وقد تعلمت منها أن المرء حين يتمكن من إنجاز عمل يتسم بالصعوبة والمشقة ، يهون عليه بعد ذلك ما يعقبه من أعمال ويشعر بها أكثر يسراً وسهولة .

وقد قدمنى المستر هاتون إلى الكثيرين من أصدقائه فى الحقل الأدبى ، ولعل أعظم هؤلاء جميعاً المستر «وليم دين هاريلز» الكاتب الروائى والمحرر الصحفى والناقد البارز ، وكذلك «مارك

توين» الكاتب الشهير . ومن عرفنى بهم المستر هاتون أيضاً المستر «تشارلز ددلى وارنر» وهو قصاص بارع وصديق ودود كان قوى العاطفة إلى حد قبل عنه بصدق أنه عاشق لكل الكائنات الحية . وقد صحتنى المستر وارنر ذات مرة لرؤية شاعر الغابات العزيز المستر «جون بوروز» . وكان هؤلاء جميعاً فى غاية اللطف والود وقد أعجبت بسلوكهم وأسلوبهم فى الحديث تماماً كما أعجبت من قبل بذكائهم وروعة أسلوبهم فى الكتابة . ولم يكن باستطاعتى مجاراة عمالقة الأدب هؤلاء حينما كانوا ينتقلون بالحديث فى سلاسة من موضوع لآخر ، أحياناً كانوا يتبادلون المناقشات العميقة أو يتفكهون فى الحديث بالمعنى . إذ كنت بينهم أشبه بصبى صغير يحاول جاهداً مجاراة خطى والده الواسعة ، لكنهم كانوا يتوجهون إلىّ أيضاً بكلمات تفيض بالعطف والود ، وحدثنى المستر جلدر ذات مرة عن رحلاته فى ضوء القمر عبر الصحراء الكبرى إلى الأهرامات ، وفى رسالة كتبها لى وقع باسمه مضموناً على الورق فى وضع عميق ليتسنى لى أن أتحسسه . وهذا يذكرنى بما كان يفعله الدكتور هيل الذى اعتاد على إضفاء لمسة خاصة على رسائله إلىّ عن طريق توقيع اسمه بالحروف البارزة . وقد قرأت من على شفتى سارك توين واحدة أو اثنتين من أفضل قصصه وكانت لديه طريقتة الخاصة فى التفكير والحديث وفى

كل مايفعل ، وهو حتى حين يروى قصصه الساخرة يجعلك تشعر  
أن قلبه مليء بالمشاعر الإنسانية !

وقد التقيت بالكثيرين غيرهم من المشاهير والشخصيات العامة  
في نيويورك ، ومنهم مثلاً المسر ماري ميبس دودج رئيسة تحرير  
مجلة «سانت نيكولاس» ، وكيت دوجلاس ويحين مؤلفة «بيستي  
Pastty» . وقد أهداني كتبهما وكتبتا لي رسائل رقيقة ، كما  
أرسلا إليّ صوراً أحب دائماً أن توصف لي سرراً وتكراراً . ولما  
كان حيز هذا الكتاب يضيق ذكر كل أصدقائي فسوف أكتفي  
بالحديث عن اثنين آخرين فقط ، وإحدهما هي المسر وليم ثو من  
بشبرج ، التي كثيراً ماترددت على منزلها لزيارتها ، وهي دائماً لا  
تدخر وسعاً من أجل إسعاد الآخرين ، وقد شملتني أنا ومعلمتي  
الآنسة سوليغان بلفتاتهما الكريمة ونصحها الحكيم طوال السنوات  
التي كنا على صلة بها فيها .

أما الصديق الآخر فليس باستطاعتي أن أذكره بالاسم وإن كنت  
أؤكد إنني مدينة له ديناً عظيماً ، فقلبه العطوف واهتمامه ووجه قد  
يسر لي الالتحاق بالجامعة .. وهو رجل شهير واسع النفوذ ،  
وقدراته الخلاقة تدفع كل شخص إلى احترامه .. وهو شغوف بكل  
إنسان ، ويفعل الكثير من الخير سرّاً بصورة لا يدري بها أحد ..

كان لأصدقائي أثر عظيم على قصة حياتي ، إذ ساعدوا بشتى  
الوسائل في إحالة عجزى ومعوقاتي إلى مزاييا باهرة ، وأعانوني على  
اجتياز منطقة الظلال التي خيمت على حياتي من جراء فقدى  
سمعى وبصرى ونشروا الأمان والبهجة فى ربوع حياتي .

هيلين كيلر

١٩٠٢



نعت بحمد الله

● هيلين كسيلر واحسنة من أبرز الشخصيات التي ولدت في القرن التاسع عشر، فالتاريخ سيظل يذكرها باعتبارها الفتاة التي تمكنت من قهر الإعاقة المزوجة التي أصيبت بها بفقد بصرها وسمعها، ومن المشاركة الفعالة في الحياة العامة والأنشطة الاجتماعية وهيلين بالطبع لم يكن يوسعها تحقيق تلك الإنجازات بمفردها، فهي في الواقع قد ظفرت بعون معلمة قديرة لا تقل عنها براعة والمعلمة هي الآنسة «آن سرليشان»، تلك الشابة التي أخذت على عاتقها أن تقود «هيلين كسيلر» في رحلة الخروج من الظلام الذي كان يحيم على حياتها، وأن تعاونها على الحياة بصورة طبيعية كسائر البشر.

منتديات ليلاس الثقافية

بوم

بوم